المرأة و دورها في المجتمع المغولي

طبقاً لمصادر المغول وقوانين الياسا

دكتور
صلاح الدين محمد نوار
كلية الدراسات العربية والإسلامية
جامعة القاهرة - فرع الفيوم

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه



الناشـــر : **منشأة المعارف**

44 ش سعد زغلول ـــ محطة الرمـــل ـــ ت / ف : 4833303 الأسكندرية

32 ش دكتور مصطفى مشرفة ـــ سوتـــير ـــ ت : 4843662 الأسكندرية

اسم الكتـــاب : دور المرأة في المجتمع المغولى

اسم المؤلـــــف : صلاح نوار

رقـــم الايـــداع : 99/11863

الترقيم الـــدولى : 977-03-0626-6

الطبعـــة : الاولى اغسطس 1999

جمع كمبيوتر: مكتب الكرنك للكمبيوتر

التجهيزات الفنيـــــة : سلطان كمبيوتر

المرأة ودورها فى المجتمع المغولى

طبقًا لمصادر المغول وقوانين الياسا

تأليف
دكتور
صلاح الدين محمد نوار
مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الدراسات العربية والإسلامية
جامعة القاهرة - فرع الفيوم

١٩٩٩

الناشر
منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيمٌ »

(سورة يوسف : آية ٢٨)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

توطئـه

مما يستلفت النظر أنه بالرغم من الدراسات العديدة والمتنوعة التى حظى بها تاريخ المغول من قبل المؤرخين القدامى والمحدثين من العرب والأوربيين منذ ظهور جنكيزخان ونجاحه فى توحيد منغوليا والقبائل المغولية تحت سيادته منذ عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦م فقد أقتصرت على جوانب محددة أو معينة تخص شخصية فاتح العالم (١) أو تاريخ المغول بصفة عامة (٢) أو تاريخ القوانين والضوابط التى أصدرها جنكيزخان المعروفة باسم الياسا (٣) ، أو كما يطلق عليها ابن عربشاه التوراة الجنكيزخانية (٤) ، أو التأثيرات المغولية على دولة المماليك البحرية فى مصر (٥) ، دون أن تخصص دراسة مستقلة قائمة بذاتها تتناول المرأة

---

(١) مثلاً عطا ملك الجوينى : تاريخ فاتح العالم (جهانكشاى) ، نقله عن الفارسية إلى العربية د. محمد التونجى ، (دار الملاح دمشق) ١٩٨٥ جزءان .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، تعريب د. فؤاد الصياد ، دار النهضة العربية (ط. بيروت) بدون تاريخ ، أيضاً د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ط. القاهرة ١٩٦٠م؛ د. السيد الباز العرينى : المغول ، ط. دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ ؛ فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، الكويت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، د. سعد زغلول عبد الحميد : الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم ، مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٠ عام ١٩٥٦م ص٥٩ – ٨٤ ؛ أيضًا شبولر : العالم الاسلامى فى العصر المغولى ، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى ، دمشق ١٩٨٢م .

(٣) د. سعد الغامدى : الياسا : دراسة نقدية وتحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها ، فصلة من مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ، مجلد ٣٧ عام ١٩٧٩ ، ص٧٧ – ١٢٧ .

(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، ط. بيروت ١٩٨٦ ، ص٦٥ .

(٥) د. صلاح الدين محمد نوار : الطوائف المغولية فى مصر وتأثيراتها فى عصر دولة المماليك البحرية ، ط. منشأة المعارف ، اسكندرية ١٩٩٦م .

المغولية ومكانتها فى المجتمع المغولى ودورها السياسى والعسكرى والاجتماعى والحضارى فى الامبراطورية المغولية [١] سواء فى عهد جنكيزخان أو حتى بعد وفاته وانقسامها بين أبنائه* خاصة أنه من المتعارف عليه فى تواريخ الأمم والشعوب أن النساء كان لهن الفضل الأكبر فى تحريك الأحداث ، بل كن محوراً رئيسياً تدور حوله الأحداث ، خاصة من كان منهن من تتوفر فيها الشخصية القوية كالرجال سواء بسواء ، بل إن بعضهن قمن بأعمال فى مجال السياسة الداخلية والخارجية

---

(١) يلاحظ أن معنى اسم المغول لازال موضع خلاف على الرغم من التسليم بما أورده Schott من أن اللفظة مشتقة من كلمة Mong الصينية بمعنى باسل شجاع . وإن كان أحد المؤرخين المحدثين يرى أن المغول تحريف لكلمة مانخول وهى إحدى قبائل المغول وكان زعيمها يسمى يسوجاى وكان سليل عائلة نبيلة وهو والد تيموجين (جنكيزخان) . شبولر : العالم الإسلامى ، ص٢٢ . ويلاحظ أن الكثير من المؤرخين خاصة المسلمين قد أطلقوا مسميات مثل تاتار أو تتر أو تتار على كافة المغول ، بل ونقل اسم التتار إلى أقصى أنحاء العالم ، وعرف المغول فى بداية الأمر فى العالم الإسلامى وبعد ذلك فى أوربا باسم التتار . ونشر المسلمون والأوربيون هذا الاسم لكل الأمم التى فتحها المغول والذين أصبحوا رعايا للمغول واشتركوا فى غزواتهم . راجع د. سونج كونج: حملات جنكيزخان على الدولة الخوارزمية ، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر ، ص٢١ – ٢٢ حاشية .

ومن المهم للغاية أننا لا يجب أن نخلط بين المغول والتتار . فرغم اتخاذ المغول اسم التتار وكانوا ينتمون إلى التتار السود ، فالراجح أن ذلك يرجع إلى ما كان للتتار من شهرة سابقة على ظهور المغول منذ القرن السادس الميلادى فى حين لم تبدأ شهرة المغول إلا منذ القرن الثانى عشر الميلادى . وقد عاش التتار فى الجزء الجنوبى الغربى من بحيرة بايكال وامتدت منازلهم إلى نهر كيرولين وهم ثلاثة أقسام : التتار البيض ، والتتار السود ، وتتار الغابة . فى حين أن المنازل الأصلية للمغول امتدت على أنهار كيرولين ونونى وأرخون ، ونجحوا فيما بعد فى اخضاع التتار النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين . د. الباز العرينى : المغول ، ص٣٥ ، ٤٣ ؛ د. سونج كونج : حملات جنكيزخان ، ص٢٢ – ٢٣ والحواشى .

يعجز عنها الرجال ، بل وأحياناً كثيرة غيرن مسيرة التاريخ من وراء ستار أي متخفين وراء الرجال ولكى تنسب هذه الانجازات إلى الرجال دون النساء* وهى الأمور التى اعترفت بها المصادر العربية والفارسية التى تحت أيدينا ، وأكدتها قوانين الياسا المغولية التى أفردت مكاناً لا بأس به للمرأة المغولية ضمن بنودها لتؤكد الدور الحيوى والهام الذى قامت به المرأة المغولية فى كل جوانب الحياة ، وأنها كانت تشارك الرجل مشاركة تامة فى كل شئ ، وكان لها نفس الحقوق التى لديه* بل أن نصوص المصادر العربية ومصادر المغول التى لدينا تؤكد أن المرأة المغولية - فى كثير من الأحيان - كان لها اليد العليا على الرجال ، بل وكن يتدخلن فى اختيار قاآنات وخانات المغول - كما سنوضح فى حينه - بل وأكثر من ذلك كن يقررن مصير ممالك المغول ، وهذا يبين مدى قوة المرأة فى العهد المغولى . وكانت رئاسة العشيرة والخروج إلى الصيد والحرب ، كانت المرأة شريكة للرجال فيها ، وكان عمل المرأة المغولية غير محدود فى حين أن عمل الرجل فى المجتمع المغولى هو المحدود(١) ، بل كانت للمرأة المغولية على الرجال درجة ، ويؤكد هذا ما ذكره عمدة مؤرخى المغول رشيد الدين فضل الله ، قبل أن يتولى چنكيزخان زعامة المغول ، أن النساء المغوليات لم يكن يوقرن أزواجهن (٢) ، مما يدل على شدة بأس وقوة شكيمة المرأة المغولية .

والمؤكد فيه أن هذه العوامل هى التى دفعتنا إلى دراسة حقيقة الدور الذى قامت به المرأة المغولية والتعرف عليه من قريب خاصة وأنه لا توجد دراسات جادة متخصصة تناولت المرأة

---

(١) د. شيرينى بيانى : زن در ايران عصر مغول ، تهران ١٣٥٢ هـ . ش ، المقدمة ص٢ .

(٢) نص رشيد الدين كما ذكر فى د. العرينى : المغول ، ص٤١ .

المغولية[١] ، لأن المجال لازال خصباً لدراسات أخرى تتعلق بمدى تأثير المرأة المغولية على مجريات الأحداث ومقدرات الأمور فى العصر المغولى وهذه الدراسة ليست إلا اجتهاداً شخصياً ومحاولة متواضعة من جانبنا لاظهار مكانة المرأة المغولية ودورها السياسى والعسكرى وأسهاماتها فى الحضارة والفكر فى العصر المغولى ، ولعل هذه الدراسة تكون بادرة لدراسة أوسع فى هذا المجال يقوم بها باحثون فى عالمنا العربى إذ لا أعرف ، حسب علمى القاصر ، أن أحداً قد تناول هذا الموضوع من الباحثين المحدثين من العرب أو حتى الأوربيين فى دراسة جادة وتحليلية ، ولهذا فإن هذه الدراسة عمل المجتهد . وإن أصبت فهذا توفيق من الله ، وإن أخطأت فيكفينى أجر المجتهد الذى أخطأ .

أولاً : مكانة المرأة المغولية فى المجتمع ووضعها فى قوانين الياسا المغولية :

يؤكد مؤرخو المغول [٢] وقوانين الياسا [٣] أو التوراة الچنكيزخانية

(١) يلاحظ أن المراجع الأوربية الحديثة التى تناولت تاريخ المغول لم تتطرق على الاطلاق إلى دور المرأة المغولية فى العصر المغولى أو تفرد لها دراسة مستقلة .

(٢) مثلاً رشيد الدين . جامع التواريخ ، ص١٧ - ١٨ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٢٠ ، ١٧١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ .

(٣) بنود قوانين الياسا كما ذكرها السفير الأوربى وليم روبرك Rubruck, W., The Journey of William Rubruck to the Easternpart of the World, 1253 - 1255, London 1967 p.p. 99 - 200 .

وأيضاً هناك بنود ذكرت فى كتاب د. العرينى : المغول ، ص٦٣ ؛ د. سعد الغامدى : الياسا ، ص١٠٣ معتمداً على روبرك . هذا وقد سبق التعرض للمسميات المختلفة التى أطلقت على قوانين چنكيزخان بالتحليل فى بحثى المعنون باسم : الطوائف المغولية فى مصر ، ص٥٦ - ٥٧ . هذا ويذكر صاحب تاريخ فاتح العالم أن هذه القوانين قد كتبت على طوامير بالخط الأويغورى وسميت كتاب القواعد الكبير وحفظت فى خزائن -

والرحالة العرب (١) والأوربيون (٢) وكتاب النظم الإسلامية (٣) أن النساء المغوليات كن يتمتعن بحرية كبيرة واستقلال واسع ونفوذ وسلطان عظيم ، فهن عاملات مجدات ومحاربات أيضاً مثل الرجال (٤) . فكانت المرأة ترافق الجيش المغولي في حملاته وتهتم بشئون الرجال المحاربين واحتياجاتهم ، فلم تكن تهتم بإدارة شئون المنزل وتربية الأطفال فحسب (٥) . وكانت المرأة المغولية تتمتع بالحرية التامة ، فكان لها

= الأمراء ، حتى إذا نصب أحدهم أميراً أو قائداً أو شغل بتدبير جزء من الدولة رجع إلى هذه الطوامير وانتهج مسلكها في بناء البلاد أو تدمير مدن الأعداء . الجويني : جهانكشاى ، ج١ ص٦٢ . للاستزادة عن تلك القوانين راجع المصدر السابق ، ج١ ص٦١ - ٦٣ ؛ أيضاً د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٣٩ - ٢٤٠ .

(١) مثلاً ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق طلال حرب ، ط. بيروت ١٩٨٧ ، ص٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ .

(٢) مثلاً السفير الأوربى ومبعوث الملك لويس التاسع وليم روبرك الفرنسسكانى Rubruck, The Jurney of Rubruck, pp. 104 - 105, pp. 199 . 200.

يقال أن ملك فرنسا لويس التاسع أرسل هذا القس إلى بلاط خانات المغول ، فاستغرقت رحلته نحو من سنتين (٦٥١ - ٦٥٣ هـ / ١٢٥٣ - ١٢٥٥م) فكان معاصراً للمغول وشاهد عيان للأحداث التى وقعت أثناء اقامته هناك ، حيث سكن معهم فى عاصمتهم قراقورم ، وعرفهم عن كثب ، وأصبح ما كتبه عنهم ، أثناء رحلته إليهم ، من أهم مصادر تاريخ المغول خلال القرن ٧ هـ / ١٣م ، وذلك من الناحيتين السياسية والعلمية . وسجل مذكراته تلك فى كتابه السالف الذكر راجع منه مقدمة ناشر كتابه ، أيضاً د. سعد الغامدى . جوانب من حياة المغول ، مجلة كلية آداب اسكندرية مجلد ٣٧ ، ص١٣٣ - ١٣٤ . معتمداً على مصادر ومراجع .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، نسخة مصورة من الطبعة الأميرية ، ج٤ ص٤٢٥ - ٤٢٦ ، ٤٧٥ - ٤٧٦ .

(٤) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ص٧٥ معتمداً على نص ابن عربشاة .

(٥) شبولر : العالم الاسلامى ، ص٢٨ .

أملاكها الخاصة[1] وكان لها حرية التصرف فيما تمتلكه وما ترثه من زوجها [2] ، وكان لها حتى حق التقاضى أمام المحاكم [3] . وحتى بعد اعتناق المغول الاسلام وعلى رأسهم مغول القبشاق أو القبجاق (مغول قبائل الأوردو الذهبية) ظلوا يحتفظون للمرأة بمركزها الممتاز ، وعبر عن ذلك الرحالة المغربى ابن بطوطة أثناء رحلته فى بلاد القبجاق ، عندما سجل فى أوراقه مدى تعجبه واندهاشه من تعظيم النساء عند مغول القبشاق المسلمين ، وأنهم أعلى شأناً من الرجال [4] وأنهن سافرات ، لا يحتجبن ويحضرن مجالس الرجال ، وقد تسير المرأة مع زوجها فيظنه من يراها كأنه أحد خدمها ، [5] . وأن سلطان القبجاق المعروف باسم محمد أوزبك خان عندما يصدر أوامره يصدرها باسمه وباسم خواتينه أو زوجاته [6] .

ونتفق رواية القلقشندى مع رواية ابن بطوطة عندما يؤكد أن خواتين المغول أى زوجات خانات المغول وملوكهم كانوا يشاركون أزواجهن فى الحكم وأصدروا الأمور عنهم مثل أولئك وأكثر[7] . بل ويذكر فى موضع آخر من كتابه – نقلاً عن ابن فضل الله العمرى – أنه اطلع على الكثير من الكتب الصادرة من ملوك أو خانات مغول القبجاق منذ عهد بركة خان وما بعده ، ووجد فيها من العبارات التى تؤكد ذلك مثل ، وأتفقت

---

(١) شبولر : العالم الاسلامى ، ص٤٣ معتمداً على نص وليم روبروك .

(٢) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ١٠ ، ص٧٦ .

(٣) شبولر : العالم الاسلامى ، ص٤٣ .

(٤) ابن بطوطة : رحلته ص٣٤٣ سطر ١١ .

(٥) راجع ذلك النص الفريدفى ابن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ .

(٦) ابن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٥ – ٣٤٦ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٥ – ٤٧٦ .

آراء الخواتين والأمراء على كذا ، (١) . أو ما يجرى هذا المجرى . ويضرب لذلك مثلاً بامرأة تسمى بغداد خاتون زوجة السلطان أبى سعيد بهادر بن خدابندا (٧١٤ - ٧٣٣ هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٥م) الذى يذكر أنه « لم ير من يحكم حكمها » (٢) . وهو الأمر الذى سنوضحه فى موضعه المناسب من تلك الدراسة . ويذكر القلقشندي فى موضع آخر مدى نفوذ المرأة المغولية وقوتها فى المجتمع المغولى عندما يشير إلى الخواتين من زوجات خانات المغول كانت لهن مخصصات مالية سنوية تضارع بل وتفوق مخصصات أزواجهن من حكام المغول (٣) .

إن كتاب ابن بطوطة قد احتوى بين دفتية العديد من النصوص التي تؤكد مدى ما كان للأميرات المغوليات من الأسر النبيلة من نفوذ عظيم (٤) ، والتى يضيق المقام عن حصرها والتعرض لها خشية أن يطول البحث عما هو مقدر له ، وإن كنا نختار منها نصًا هامًا يؤكد المساواة بين الرجل والمرأة فى دولة مغول القبجاق المسلمة عندما يشير إلى أن الخاتون الملكة زوجة خان المغول من الأوزبك كانت تجلس جنبًا إلى جنب بجوار زوجها على سرير الملك سواء فى حله أو ترحاله (٥) . بل أن الخاتون زوجة خان المغول كانت تركب إلى بيتها فى موكب ضخم وسط حاشية وأتباع لا تقل عن حاشية وأتباع خان المغول ،، وكان يسير

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٦ سطر ٢ .

(٣) راجع نص القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٢٥ - ٤٢٦ . يقول النص : وأما الخواتين فإنه يبلغ ماللخاتون الواحدة فى السنة مائتى تومان وهو ألف ألف دينار رابح (مليون دينار) عنها اثنا عشر ألف ألف درهم ، وما دوّن ذلك إلى عشرين تومانًا ، وهو مائتا ألف دينار عنها ألف ألف ومائتا ألف درهم .

(٤) ابن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٥ - ٣٤٩ ، ٣٥٢ - ٣٥٤ .

(٥) ابن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

عن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون أى الوزيرة ، وعن شمالها امرأة من القواعد تسمى كجك خاتون أى الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات وبين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيات الروميات والهنديات وقد لبسن ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر ، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة ،[1] . وهذه النصوص وغيرها تبين مكانة المرأة وقوتها فى العهد المغولى ويؤكد هذا الوضع المتميز للمرأة المغولية خاصة من الطبقة الارستقراطية والحاكمة أن الأميرة الصينية التى اتخذها جنكيزخان زوجة له من أسرة كين [2] والتى عاشت بعده ثلاثين سنة ، قبيل استيلائه على بكين [3] ، رغم أنها لم تكن جميلة الخلقة ، ولم تنجب له أطفالاً ، إلا أنها لقيت طوال حياتها المعاملة الطيبة التى تليق بها باعتبارها ابنة امبراطور عظيم وحتى سقوط ملك أبيها [4] ، باعتبارها ممثلاً للحضارة والثقافة الصينية المتقدمة داخل البلاط المغولى .

وهذا الوضع المتقدم الراقى للمرأة المغولية تؤكده لنا قوانين الياسا المغولية أو التوراة الجنكيزخانية التى أفردت لها مكاناً ضمن بنودها [5] ،

---

(١) ابن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٦ – ٣٤٧ .

(٢) المعروف أنه كان للامبراطورية الصينية فى عهد أسرة كين هيبة كبيرة فى نفوس أهل الاستبس ومنهم المغول . د. العرينى : المغول ، ص٦٠ .

(٣) استولى جنكيزخان على بكين عام ٦١٢ هـ / ١٢١٥م . راجع برتولد : تركستان ، ص٥٦٣ ؛ د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٢ – ٢٣ .

(٤) د. العرينى : المغول ، ص٦٠ – ٦١ . معتمداً على مصادر ومراجع لم يذكرها .

(٥) يرى أستاذنا الدكتور سعد زغلول أن مثل هذه القوانين التى وضعها جنكيزخان كانت بمثابة قوانين عرفية عمل بها غيرهم من البدو مثل البرابرة الجرمان الذين استقروا داخل الامبراطورية الرومانية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين خاصة من الناحية الجنائية . د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ١٠ ، =

والتى توضح مكانة المرأة ودورها المؤثر ، وتمتعت فيها المرأة المغولية باستقلال واحترام عظيمين والذى يتطابق تماماً مع ما ذكرته نصوص مؤرخى المغول والمؤرخين العرب والأوربيين من الرحالة أو السفراء المتجولين .

إن الياسا الجنكيزخانية[1] قد استبشعت جريمتى العدوان على النساء

- ص٧٦ . ويتفق مع رأى سيادته ما ذكره د. سعد الغامدى فى مقاله عن الياسا ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ٣٧ ص١٠١ - ١٠٣ ، راجع ما ذكره عنها د.العرينى : المغول ، ص٦٢ - ٦٣ .

(١) وضعت قوانين الياسا ما بين سنوات ٦٠٣ - ٦١٥ هـ / ١٢٠٦ - ١٢١٨م . راجع د. سعد الغامدى : الياسا ، مجلة كلية آداب اسكندرية ، مجلد ٣٧ ، ص٨٢ . معتمداً على رأى رايازنوفسكى - Riasanovisky .

ويقال أنها نقشت فى صفائح من الفولاذ . ويذكر المقريزى أن العبد الصالح الداعى إلى الله تعالى أبو هاشم أحمد بن البرهان - رحمه الله - أنه رأى نسخة من الياسا بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . المقريزى : الخطط ، نسخة مصورة من طبعة بولاق عام ١٢٧٠هـ ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ، ج٢ ص٢٢٠ . (ط. أخرى لنفس نسخة بولاق ضمن سلسلة الذخائر رقم ٥٣ ، ج٣ ص٢٢٠ سطور ٢٣ - ٢٤) . هذا وقد أورد المقريزى فى خططه العديد من أحكام ومواد هذا القانون المغولى . ويعتبر ما ذكره عنها أفضل عرض مفصل لبنود الياسا أورده لنا مؤرخ من العصر المملوكى . المقريزى : الخطط ، ج٢ ص٢٢٠ - ٢٢١ . ويلاحظ أن المقريزى نقل بعض النصوص الخاصة بالياسا المغولية من كتاب العمرى : مسالك الابصار إلا أنه لم يذكر ذلك . أنظر بعض مواد الياسا أيضاً فى القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٣١١ .

ومما يثير الدهشة أن الكثير من المغول المسلمين كانوا لا يزالون متمسكين بكثير من عادات المغول وتقاليدهم المتبعة فى منغوليا مما تضمنته الياسا ، ومن ذلك عدم استعمال مياه النهر للغسل أو للاغتسال . راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٧٣ ؛ أيضاً Rubruck, The Journey, p. 101 .

كذلك سعد الغامدى : الياسا ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ٣٧ ، ص١٠٧ - ١٠٩ معتمداً على مصادر ومراجع . ولذلك نبه على السفراء المرسلين من السلطان -

والسرقة واعتبرتهما من الكبائر وخصصت لهما عقوبات قاسية . فالقانون يعاقب زنا الرجل أو زنا المرأة بالموت . فعقوبة الاعتداء على المرأة المتزوجة هى نفس عقوبة التآمر والقتل العمد ، وهو الموت (١) . ويقول القانون ، من ارتكب جريمة الزنا ، متزوجاً ، أو غير متزوج ، مع امرأة ليست له ، زوجة أو سرية ، فإنه يحاكم تمهيداً لاعدامه ، (٢) . وأما الاعتداء على فتاة عذراء فعقوبتها الغرامة بل والزام المعتدى بزواجها (٣) . مما يدل على مدى كراهية چنكيزخان لمن يرتكب الفاحشة والسرقة / ولم تنس التوراة الچنكيزخانية (٤) وهى تنظم الحياة العائلية فى المجتمع المغولى أن يجعلها تنخرط كرديف للجيوش أثناء الحملات العسكرية ، فكان عليها أن ترافق الجيش فى حملاته ، وتهتم بشئون المقاتلين

- المملوكى الظاهر بيبرس الأول إلى بلاط بركة خان مغول القبشاق لتوثيق الروابط بين الطرفين ، بألا يغسلوا ملابسهم فى الأوردو ، ولكنهم كانوا يغسلونها خفية إذا ما اشتدت حاجتهم لذلك . راجع ابن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد المعروف بتاريخ ابن أبى الفضائل ، نشر بلوشيه Blochet ، باريس ١٩١١ - ١٩٣٠ ، ص١١٦ - ١١٧ ؛ أيضاً بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص١٧٨ .

(١) Rubruck, The Journey, p. 105 .
أيضاً د. سعد الغامدى : الياسا ، مجلة كلية آداب اسكندرية ، مجلد ٣٧ ، ص١٠٣ ؛ شبولر : العالم الاسلامى ، ص٤٣ . ويلاحظ أن ذكر الياسا أن من زنى يقتل لم يفرق بين المحصن وغير المحصن . د. العرينى : المغول ، ص٢٣٩ .

(٢) Rubruck, The Journey, p. 105 .

(٣) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ١٠ ، ص٧٦ - ٧٧ معتمداً على رأى كل من كاهن وهالفن .

(٤) يذكر أحد أقطاب الدراسات المغولية الحديثة كيف أن قوانين الياسا التى وضعها چنكيزخان قد حولت المغول من مجرد قطعان ذئاب لا ضابط لها ولا رابط إلى جيوش وجماعات منظمة تعرف كيف ترسم خططها بدقة وإحكام . د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٣٨ - ٢٣٩ .

وحاجاتهم . وتذكر أحد بنود الياس فى ذلك أن النساء والرجال الذين يبقون فى المنازل والخيام أثناء المعركة فإنهم يعدون الطعام والمؤونه من غير أن يتوانى واحد منهم سواء أكان رجلاً أو امرأة (١) . ومن ضمن نصوص الياس أيضًا أن تلتزم نساء العسكر المغولى بالقيام بما على الرجال من السخرة والكلف فى أثناء غيابهم فى ميدان القتال (٢) .

وعلى الرغم من أن قوانين الياسا الجنكيزخانية قد استبشعت جريمة الاعتداء على المرأة المتزوجة واعتبرتها من الكبائر وعاقبت زنا الرجل أو زنا المرأة بالموت - كما ذكرنا آنفًا - إلا أننا نجد النقيض على الجانب الآخر ، فقد نظرت تقاليد المغول إلى المرأة باعتبارها متاعًا للقادة والخان الأكبر (القآن) خاصة فى أوقات الحرب والقتال ولدينا نص يؤكد ذلك ذكره صاحب كتاب تاريخ فاتح العالم عندما فرض على العذارى من فتيات المغول مرافقه الجيوش المغولين فى المعارك للتسرى بهن ، مما يمثل فى رأينا اهدار لكرامة المرأة المغولية ويقول النص « وتجمع الأبكار المرافقات للجيش عشرة عشرة ومائة مائة ، ويختار أمير التومان (٣) ، منهن عدداً فيرسلهن إلى الخان أو إلى أبناء الملوك ينتقى منهن ما يروق له « فامساك بمعروف ، والباقى منهن « تسريح باحسان ، حيث يحولن إلى سيدات القصر يستخدمن منهم ماشئن ويهبن ماشئن ، (٤) . وهذا النص يؤكد على حقيقة هامة وهى أن المغول كانوا يفرقون بين النسوة

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٦٦ .

(٢) Rubruck, The Journey, p.200

أيضاً د. العرينى : المغول ، ص٦٣ .

(٣) التومان : عشرة آلاف رجل ، د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ . ص٢٥٨ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٦٧٠ . من المهم نذكر أننا سوف نضطر لاستخدام هذا النص الخاص بالجوينى عدة مرات فى دراستنا تلك لأن طبيعة الدراسة وتعدد جزئياتها تطلبت ذلك .

من طبقة النبلاء من زوجات القآن والأمراء من الأسرة الحاكمة والنساء من طبقة العامة ، لأن المجتمع المغولى من الناحية النظرية والواقعية كان لازال قائماً على الطبقية ، فهناك طبقة النبلاء ، وطبقة الأحرار (نوكور) الذين يرتكز عليهم النظام العسكرى والسياسى فى منغوليا زمن چنكيزخان وتتكون منهم طبقة المحاربين والموالين له ، ويضاف إلى ذلك طبقة العامة وطبقة الأرقاء [1] . وهذا النص الذى ذكره صاحب تاريخ جهانكشاى يوضح أن المرأة المغولية من طبقة النبلاء والأحرار كن يتمتعن بامتيازات ومكانة لم تتمتع بها المرأة من طبقة العامة أو طبقة الأرقاء . ويؤكد وجهة نظرنا تلك أنه كان من ضمن تقاليد أو قوانين چنكيزخان أن المرأة من الطبقات الشريفة لا يجوز لها الزواج من رجل أقل منها حسباً ونسباً [2] .

ومما يؤكد وجهة نظرنا أيضًا حول تفريق المغول فى المعاملة بين نساء الطبقة الارستقراطية (الطبقة الحاكمة والنبلاء) ونساء وفتيات الطبقة العامة فى تلك الحادثة التى أوردها عمده مؤرخى المغول رشيد الدين التى تؤكد مدى القسوة والوحشية فى معاملة فتيات الطبقة غير الارستقراطية خاصة عندما خالفت قبيلة هذه الفتيات تقاليد المغول وأوامر القآن وذلك أثناء قآنيه أوكتاى [3] بن چنكيزخان (٦٢٧ - ٦٤٢ هـ /

---

(١) د. العرينى : المغول ، ص٤٠ .

(٢) د. سعد زغلول : الترك ، فصله مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ١٠ ، ص٧٦ .

(٣) هكذا ذكر اسمه فى معظم مصادر المغول ومعناه : العروج إلى الجبل . مثلاً رشيد الدين: جامع التواريخ، ص١٤ ، ١٦ ، ٢٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٧٢ . ويرسمه برتولد : أوكداى . برتولد : تركستان ، ص٦٥١ . واشتهر أوكتاى بالعقل والكفاءة وسداد الرأى والتدبير والوفاء والفتوه والعدل . ولكنه كان ميالاً إلى اللهو والشرب وكان چنكيزخان يؤنبه أحياناً ويزجره . ورغم تردد چنكيزخان فى اسناد العرش من بعده ما بين أوكتاى وابنه الأصغر تولوى ، ومع أنه طبقًا لنظم المغول ورسومهم منذ القدم أن -

١٢٢٩- ١٢٤١م) عندما ذاع بأن القآن يريد أن يزوج بنات قبيلة الأويرات المغولية من رجال قبيلة أخرى ، فسارع أهلوهن بتزويجهن من رجال القبيلة نفسها أى تزويج البنات من نفس قبيلتهم [١] . فلما علم أوكتاى بذلك أمر باحضار بنات القبيلة اللائى تجاوزن السابعة[٢] ، ثم «أمر القآن بأن يعزل منهن بنات الأمراء ، وأصدر قراراً بأن يُعتدى على بقية الفتيات بصورة وحشية أمام أبائهن وأخوانهن وبعولتهن «بأن يجامعهن كل الحاضرين ، فهلكت بنتان منهن [٣] » . ثم أمر بتفريقهن بعد ذلك فأخذ البعض منهم إلى البلاط كمحظيات ووزع البعض الآخر منهم على الأمراء وعلى كل الحاضرين من المغول

= يؤول للابن الأصغر الاشراف على الموطن والمقام الأصلى وبيوتات الوالد ، فإن جنكيزخان عندما دهمه المرض اختار أوكتاى ولياً للعهد وخصه بالعرش والملك قائلاً : «إن شئون العرش والملك شئون عسيرة وأوكتاى يعرف هذه الأمور» . رشيد الدين : جامع التواريخ ص١٦ - ١٧ . وللاستزادة عن أسباب اختيار جنكيزخان لأوكتاى من بعده راجع الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٧٣ - ١٧٥ .

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٩٢ -٩٣ . ويؤيد روايته المؤرخ دوسون D'ohsson, (M.), Histoire des Mongols depuis Tchinguiz khan jusqu'a Timur Bec., Amesterdam 1835, To. II, p.98.

ويعارض المؤرخ الكبير برتولد ما ذكره دوسون ، استناداً على رواية جامع التواريخ بأن هذا الحدث يتعلق بقبيلة الأويرات . ويؤكد على رأيه بأنه لم يرد ما يؤكده دوسون فيما وقع بين يديه من مخطوطات الجوينى ورشيد الدين . برتولد : تركستان ، ص٦٥١ حاشية ٦ . على أننا نؤيد رواية رشيد الدين ، ورأى دوسون ، ونخالف رأى المؤرخ الروسى برتولد الذى لم يكن دقيقًا فى قراءته لنص رشيد الدين ، خاصة وأن أوراق رشيد الدين فى جامع التواريخ أشارت صراحة إلى أن هذا الحادث يتعلق بقبيلة الأويرات من قبائل المغول .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٩٣ .

(٣) رشيد الدين : المصدر السابق ، ص٩٣ .

والمسلمين ، بينما أرسلت البقية الباقية منهن إلى الخانات والمواخير ورجال التشريفات (١) . ويضيف مؤرخ المغول أنه حدث هذا فى الوقت الذى كان ، ينظر فيه آباؤهن وأخوتهن وأزواجهن وأقاربهن ، ولم يجرؤ أحد منهم على أن ينبس ببنت شفه ، (٢) .

ويذكر المؤرخ الروسى الكبير فلاديميروفتش بارتولد فى تعليقه على هذا النص وتحليله وتعليله لهذا الحادث قائلاً أنه من الصعب القول بأن هذا العمل الوحشى من جانب أوكتاى (أوكداى) كان يمثل ضرباً من القسوة الطائشة فحسب ، خاصة وأن الزواج داخل القبيلة الواحدة كان يتنافى مع تقاليد الرعاة من الترك والمغول ، وكان هدف القآن أيضاً من ذلك فى حقيقة الأمر هو معاقبة تلك القبيلة لتجاوزها العرف والتقاليد الشعبية المغولية التى وضع جذورها چنكيزخان فى الياسا (٣) . ويضيف برتولد أنه من الصعب أيضًا تحديد مدى حقيقة الشائعات التى دفعت أوكتاى للقيام بهذا السلوك المجافى للتقاليد المغولية . كما أن برتولد يعارض المؤرخ الفرنسى دوسون D'ohsson فى افتراضه وتعليقاً له على هذا الحادث - بأن أولئك المغول لم يكن لديهم الرغبة فى أن تتزوج بناتهم من قبيلة معادية لهم ، كما أنه يمكن ربط هذا الحادث بعزم أو قرار أوكتاى فى تسهيل وتشجيع التزاوج بين المغول والمسلمين (٤) .

---

(١) رشيد الدين : نفس المصدر والصفحة السابقة ؛ أيضًا برتولد : تركستان ، ص٦٥١ حاشية ٦ ، ٧ . ويذكر برتولد أن بعضًا منهن أرسلن إلى محطات البريد للترفيه عن رسل القآن إلى الأقاليم المجاورة .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٩٣ .

(٣) برتولد : تركستان ، ص٦٥١ - ٦٥٢ ، الحواشى ٧ ، ٨ . حرى بالذكر أننا سوف نكرر مثل هذه الرواية فى جزئية أخرى من دراستنا تلك لأن طبيعة البحث ومجريات أحداثه حتمت ذلك .

(٤) برتولد : تركستان ، ص٦٥٢ .

وعلى الرغم مما يبدو فى رأى كل من برتولد ودوسون فى تحليلهما لهذا الحادث بعض الصحة ، إلا أن هذه الرواية تؤكد لنا التناقض بين ما أحتوت عليه قوانين الياسا ونصوص مصادر المغول والمصادر العربية والأوربية حول حرية وحقوق المرأة المغولية ومكانتها فى المجتمع المغولى وتطبيق قاآنات المغول بما جاء فى قوانين چنكيزخان حول المرأة ، وتؤكد تطبيق هذه القوانين على نساء الطبقة الارستقراطية الحاكمة وطبقة النبلاء، فى حين أن هذا لا ينطبق على النساء من الطبقات الأدنى اللائى كن يعاملن كرقيق بل يعتدى عليهن بوحشية دون ما شفقة أو رحمة . كما أن هذه الحادثة تؤكد من ناحية أخرى أن المغول من أجل تطبيقهم لشريعة چنكيزخان أو لقوانين الياسا وارساء قواعد الامبراطورية المغولية واحترام التقاليد والأعراف التى أرساها فاتح العالم ، لم يتورعوا عن هتك أعراض الفتيات ضاربين ببعض نصوص الياسا نفسها عرض الحائط إذا كانت أحياناً تتعارض مع مصلحة الدولة .

ثانيًا : دور المرأة المغولية فى المجالات المختلفة فى المجتمع المغولى :

١ - دورها فى المجال السياسى :

أجمعت مصادر المغول والمصادر العربية وعلى رأسها كتاب جامع التواريخ لعمدة مؤرخى المغول رشيد الدين (١) على قوة وعظم الدور الذى قامت به المرأة المغولية فى كافة الجوانب المختلفة بالمجتمع المغولى سواء فى الجانب السياسى أو العسكرى أو فى الجانب الاجتماعى فى مجال الأمومة كسيدة بيت ومربية للأطفال بالاضافة إلى اسهامها الحضارى الملموس من الناحية العلمية والثقافية أو العمرانية فى الدولة المغولية خلال العصر المغولى بأكمله .

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ - ١٧١ .

ومن نساء المغول من قمن بأدوار حيوية وخطيرة فى المجال السياسى فمنهن من شاركن الخاقانات فى حكمهم وفى التوقيع على ما يصدر من أوامر ومنشورات ومراسيم [1] . ومنهن من شغلن مرتين الوصاية على العرش المغولي عند موت القاآن [2] أو الخان الأعظم [3] . ومنهن من كانت لهن اليد الطولي والتأثير القوى فى اختيار أو ترشيح القاآنات ووضعهن على العرش المغولى [4] ، على النحو الذى سنوضحه بالتفصيل فى حينه .

على أننا نستهل هذه الدراسة بالاشارة إلي دور أعظم هؤلاء النسوة على الاطلاق وهو دور والده جنكيزخان[5] المعروفة باسم أولون إيكه[6] ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٥ ؛ إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٦ – ٣٤٨ .

(٢) لفظ قاآن (خاقان) أطلقه المغول على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه رئيس الرؤساء أو أعظم الحكام . أما لقب خان فكانوا يطلقونه على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الإمبراطورية المغولية . وإستعمل المغول لقب خان أيضاً بمعنى خاقان وربما كان ذلك من باب الرغبة فى الإختصار . المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د.محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ ج القسم ٢ ، ص٣٠٧ حاشية ٤ ؛ أيضاً حاشية رقم (١) لمحقق كتاب جامع التواريخ ص١٤ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦– ١٧ ، ١٦٠ – ١٦١ ، ١٧٠ – ١٧١ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ ، ١٧٦– ١٨١ ، الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ، ص٢٢٢–٢٢٣ .

(٥) قد يبدو للقارىء أو الباحث لأول وهلة أنه كان حرياً بنا وضع دور والده جنكيز خان فى العنصر الخاص بالدور الإجتماعى للمرأة أو تحت عنصر المرأة المغولية ودورها فى مجال الأمومة على أساس أن دورها إقتصر على تربية جنكيزخان منذ طفولته حتى شب عن الطوق ، ولكننا إرتأينا أن نستهل الدراسة بها وحتمت طبيعة البحث وضعها فى المجال السياسى ، نظراً لدورها العميق فى تكوين الشخصية السياسية والعسكرية لجنكيزخان فاتح العالم فيما بعد وعلى النحو الذى سنوضحه فى موضعه من هذه الدراسة .

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ – ١٧١ سطر ١١ . وأختلفت المراجع الحديثة=

وهو الدور الذى انفرد بذكره بالتفصيل مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين دون غيره من مؤرخى المغول أو العرب لما اشتهرت به هذه المرأة من الشجاعة والشهامة والفطنة على النحو الذى أكده رشيد الدين فى نصه الفريد عنها (١) . ويرجع أصل هذه المرأة أولون إيكه إلى قبيلة المركيت Markit وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكرايت جنوب بحيرة بايكال فى حوض نهر سلنجا ، واتصلت منازلهم بمنازل چنكيزخان ، وهم من جنس مغولى أطلق عليهم اسم مغول الغابة أو قبائل الغابة (٢) ، وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد فى الحروب (٣) ، وكان زوجها يسمى يسوكاى بهادر (أى الباسل أو الشجاع) (٤) وكان رئيس أسرة بورجقين من عشيرة قيات المغولية (٥) ، واشتهر بأنه كان محارباً شجاعاً

- فى كتابة أو رسم إسم والده چنكيزخان ، فيذكره د: فؤاد الصياد تحت إسم إلون إيكى Elun éké - دون أن يشير إلى المصدر الذى إستقى منه التسمية ، د: فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١١٧ . فى حين يذكرها د: العرينى تحت إسم هوئيلون أويولون Ho'élum من قبيلة المركيت دون أن يشير أيضاً إلى المصدر أو المرجع الذى إستقى منه هذه التسمية د: العرينى : المغول ، ص٤٤ .

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ - ١٧١ ؛ أيضاً د: شيرين بيانى : زن در إيران عصر مغول ، ص١٣٦.

(٢) د: فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٩ ؛ د: العرينى : المغول ، ص٣٧ ، ٤٠ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٩٦ ، ١٠٣.

(٤) د: فؤاد الصياد فى التاريخ ، ص١٥ ، ٥٧ ؛ د: العرينى : المغول ، ص٤٤ .

(٥) د: فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٥ ؛ د: العرينى : المغول ، ص٤٤ . ويذكر شبولر أنه كان سليل أسرة نبيلة قديمة من قبيلة مانخول (المغول) وأن المصادر إختلفت فى تحديد مكانته وأهميته ، فالبعض يرى أنه كان قائد فرقة من عشرة جنود بينما تصفه مصادر أخرى أنه كان أميراً مستقلاً . ويذكر شبولر أننا لا نجد فى حياته عملاً بارزاً يميزها بل إنه قضاها فى قتال مستمر دفاعاً عن أملاكه. شبولر: العالم الإسلامى ، ص ٢٢ ، معتمداً على مصادر لم يذكرها . ونحن لا نتفق مع رأى شبولر حول شخصية يسوكاى والد چنكيزخان خاصة وأن رأيه هذا لا يعتمد على أية أدلة أو أسانيد -

وقائداً بارعاً [1] .

ويبدأ الدور الحقيقى لأولون ايكى بولادة ابنها تيموجين [2] فى منغوليا عام ٥٤٩ هـ /١١٥٥م [3] ، على الضفة اليمنى لنهر الأونون فى

= منطقية ، كما لم يحدد لنا المصدر أو المرجع الذى بنى عليه إجتهاده أو رأيه هذا .

(١) المعروف أن أجدادچنكيزخان كانوا من أتباع أسرة كين الصينية ، وخرجوا على طاعتهم إذا قاد كابل أحد أجداد چنكيزخان الغارة على الجيش الصينى وإشترك فى هذه الغارة يسوكاى ، فإنهزم الصينيون ، وكان لأخو كابل ويسمى برطام بهادر ، أربعة أبناء كان ثالثهم يسوكاى وهو الذى إختاروه رئيساً للقبيلة . د: العرينى : المغول ، ص٤٤ ح(١) . معتمداً على مصادر ومراجع لم يذكرها .

(٢) تيموجين الإسم الحقيقى لچنكيزخان وهو مشتق من كلمة تيموشين بمعنى أحسن الحديد بالمغولية جرياً على عادة المغول فى تسمية أبناءهم بأسماء المعادن القوية . راجع د.سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب الأسكندرية ، مجلداً ، ص٧٦ . على أن أحد المؤرخين الحدثين الكبار يذكر أن تيموجين لفظة صينية معناها الصلب الفائق ومنها تيمورج بمعنى الحداد ، ومن معانيها أيضاً الفارس الكامل . د: العرينى : المغول ص٤٥ ح١ معتمداً على مراجع لم يذكرها . وفى الإجتماع الذى حضره زعماء رؤساء العشائر والقبائل المغولية المعروف بإسم القوريلتاى (بعد عام ١٢٠٦م) منح لقب چنكيزخان ومعناه أعظم الحكام أو إمبراطور البشر أو إمبراطور العالم على سائر الأقوام المغولية والتركية . د: فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٩ ؛ د: العرينى : المغول ، ص٥٦ ح(١) ؛ د. سعد الغامدى : إلياسا ، مجلة كلية آداب الأسكندرية ، مجلد ٣٧ ص٨٩، ٩٤ – ٩٦ . معتمداً على مصادر ومراجع أوربية ويشير المؤرخ الصينى المعاصر منج – هونج Meng - Hung أن لفظة چنكيز خان ليست إلا تحريفًا للفظة صينية معناها المحارب الكامل ، وإشتقاقها المغولى كما يذكر رشيد الدين يشير إلى أن Cingiz صيغة جمع للصفة Cink . بمعنى قوى وباسل . وأن تيموجين تلقى لقبه من راهب شامانى فتكون لفظة Cingis مستمدة من العقائد الدينية عن المغول . د: العرينى : المغول ، ص ٥٦ – ٥٧ حاشية (١) . ويذكر المؤرخ الألمانى شبولر أن لقب چنكيزخان لا يزال معناه غير واضح من الناحية اللغوية . شبولر : العالم الإسلامى ، ص٢٢ .

(٣) أنجب يسوكاى من أولون إيكة أربعة أبناء أكبرهم تيموجين ثم جوش قسار وقاتشيون ، وتيموجين فضلاً عن أبنه . وكانت له زوجتين أخرتين بكتر ويلجوتاى . د: العرينى ، المغول ، ص٤٤ .

منطقة دولون بولداق (١) ، وكان أبوه غائباً وقت ولادته ، حيث كان منهمكاً فى صراع مع التتار وانتصر على زعيماً لهم يسمى تيموجينا والذى وقع فى أسره . فلما رجع إلى داره سمى ولده باسم عدوه الأسير تيمناً بانتصاره . ويقال أنه عندما ولد تيموجين وجدت إحدى يديه قابضة على قطعة من الدم المتجمد كأنها الحجر الأحمر ، فقال أحد الحاضرين للزعيم الذى كان يؤمن بالأساطير أن هذا الطفل سيكون له شأناً عظيم(٢) . وعندما توفى يسوكاى بهادر عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٦م ، وترددت شائعات بأن التتار دسوا له السم (٣) ، وكان تيموجين فى الثانية عشرة من عمره (٤) ، فساءت أحوال أرملته وأطفاله بعد وفاته ، ولم تلبث أحقاد خصوم يسوكاى ، بسبب ما أحرزه من انتصارات من قبل ، أن انطلقت بعد وفاته ، وكان من أشد القبائل عداوة وضراوة قبيلة التايجوت

---

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٥ ؛ د. العرينى : المغول ، ص٤٥ .

(٢) د. العرينى : المغول ؛ ص٤٥ -٤٦ ؛ د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٥ .

(٣) د. العرينى : المغول ؛ ص٤٦ . معتمداً على مصدر لم يذكره . وبما كانت هذه الشائعات صحيحة خاصة لو علمنا أن جنكيزخان ، فيما بعد ، بعد أن إنتهى من القضاء على القبائل المناوئة له تفرغ للتتار وكان مدفوعاً بدافع الحق عليهم والإنتقام مما فعلوه بأبيه من قبل . د. سونج كونج : حملات جنكيزخان ، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر ، ص٢٣ . ويؤكد أحد الكتاب المحدثين على قتل التتار ليسوكاى للعداء الشديد القائم بين المغول والتتار . ويذكر أن يسوكاى بهادر ، وجد فى آخر سفره له ، قوماً من التتار يأكلون طعاماً فجلس وشاركهم فيما كانوا يأكلون سواء دعوه أم لم يدعوه وأن التتار عرفوه ، وظن هو أنهم لم يعرفوه ، فدسوا له سماً بطريقة أو بأخرى فيما قدم له من طعام ، وذلك للعداوة المتأصلة بين المغول والتتار فمات يسوكاى من أثر السم ، د. سعد الغامدى : سقوط الدولة العباسية ، ط : بيروت ١٤٠١هـ ، ص٥٩-٦٠ ؛ الياسا ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ٣٧ ص١١٣ .

(٤) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٧ . ويذكر شبولر أن تيموجين كان فى العاشرة من عمره عندما توفى والده . شبولر : العالم الإسلامى ، ص٢٢ .

التى أنكرت على تيموجين الزعامة ، واستغلت قبيلته صغر سنه ورمته بالضعف ورفضت أن تطيعه وتمردت عليه ، ورغم جهود أولون ايكه فى رعاية من تبقى على ولائهم من جند يسوكاى ، بل وقيامها بقيادة الجنود عدة مرات فى ميادين القتال (١) .

ورغم هذا النشاط الكبير من الأم أولون ايكى ، فقد تخلى عنهم أيضاً من تبقى من اتباع يسوكاى ، وحملوا معهم قطعانهم . وهكذا وجد ذلك الشاب المراهق نفسه وحيداً مع أمه واخوته . وهنا يظهر المعدن الحقيقى للأم أولون ايكه التى أظهرت شجاعتها وفطنتها وقوتها والتى حرصت على أن تضفيها على ابنها الأكبر تيموجين ، ولعبت أعظم دور فى انقاذه من شدته حين انفضت عشيرته من حوله (٢) . فبذلت كل ما تستطيع معه جهد لتحصل على الزاد الضرورى لأفراد أسرتها ، وعاشوا على صيد الحيوان والأسماك ، وحرصت أولون ايكه فى وسط هذه المحنة أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة ، فكانت تدبر شئونهم وتحافظ عليهم (٣) . وتعرض تيموجين واخوته وأمه لغارات التايجيوت الذين حرصوا على اذلالهم ، فلم يسع أولون ايكة إلا أن تنتقل بأبناءها إلى جبل كنتلى ، ولم يتخل البؤس عن تيموجين واخوته ، فكانوا كل ما كانوا يملكون لا يتجاوز تسع أفراس ، سرق منها قطاع الطرق ثمانية ، ولكنه استطاع أن يستردها(٤) بمساعدة صديقه الشاب بواورنجو الذى توطدت الصلة

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ ، أيضًا د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٧ ؛ د. العرينى : المغول ، ص٤٦ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ .

(٤) من المهم للغاية أن نذكر أن جنكيزخان بعد توحيد منغوليا فيما بعد ، وإنعقاد مجلس –

بينهما، وكان ذلك بداية طيبة لأمجاد بواورنجو فيما بعد [١] .

ولكى نؤكد مدى تأثير أولون ايكه العميق على شخصية تيموجين السياسية والعسكرية ، أنه حدث أن سُرق من تيموجين عصفور وسمكة [٢] ، فوقع الشجار بينه وبين أخواته وأتهم بالسرقة أخًا له من أمه فأقدم تيموجين على قتله دون ما شفقة أو رحمة [٣] ، فجمعت الأم أبناءها وبذلت لهم النصح بأن يتحدوا ولا يتفرقوا ولقنتهم درسًا فى ارساء سياسة الدولة على التكاتف والتآلف والوقوف كالبنيان المرصوص أمام العدو قائلة لهم ، لستم إلا نمرة تنقض على فريستها ، ولستم إلا كالأسد الغاضب ، ولستم إلا كالبزاة تحلق فى الجوزاء فوق ظلالها ، وكالأبل تقضم فى أثناء غضبها أبناءها ، وكالذئاب التى تنقض على فريستها فى غمرة العاصفة، فليس لدينا ، فيما عدا ظلالنا ، رفاق ، وما تعرضنا له من الشرور على أيدى التايجيوت ، بلغ من العنف ما لا نستطيع تحمله ،

- القوريلتاى ، واتخاذه رداء السلطنه ، ووضعت لأول مرة نظم الإمبراطورية . وللدلالة على قوة الخان الأعظم أقام فى معسكره لواء يتدلى منه أذيال تسع أفراس بيضاء ، ويشير الكتاب الصينيون إلى أنه رسم على هذا اللواء القمرفى المحاق . د. العرينى : المغول ، ص٥٧ .

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٧٠ ؛ د. العرينى : المغول ، ص٤٧-٤٨ . ويطلق د. العرينى على رفيق تيموجين اسم بورتشو .

(٢) د: شيرينى بيانى : زن در إيران عصر مغول ، ص١٣٦ ؛ أيضًا د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٧ .

(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٧ . ويذكر د. العرينى أن قسارشارك تيموجين فى قتل أخيهما ، وأن الشقاق الذى دب بين أبناء يسوكاى الأشقاء وغير الأشقاء أسفر عن مصرع بكتار إبن يسوكاى من زوجة أخرى . د. العرينى : المغول ، ص٤٧ .

فلابد من الانتقام منهم (١) ، . وقد تأثر تيموجين واخواته بهذه النصيحة التى تلقونها فى صغرهم عن أمهم ، لأننا سنرى تيموجين يستهل أعماله بجمع العشائر المتنافرة وتوحيدهم تحت قيادته مما كان سبباً فى تدعيم مكانته وتقوية دعائم دولة المغول فيما بعد .

إن تأثير الأم على شخصية ابنها تيموجين ظهر فى ذلك العطف الذى أظهرته عليه بصفة خاصة دون اخوته عندما قص تيموجين عليها فيما يرى النائم كأنه يقبض على سيفين بكلتا يديه يتجه طرف أحدهما إلى المشرق وطرف إلى المغرب ، فاستبشرت وسرت سروراً كبيراً ، وقالت له ، سوف تستولى على العالم شرقه وغربه وسوف يصل أثر سيفك المضرج بالدماء إلى بلاد المشرق والمغرب (٢) ، . وصدقت نبوءتها بعد ذلك . والواقع أن تفسير أولون ايكه لهذه الرؤية التى ذكرها تيموجين ، كان له أعمق الأثر فى ولدها حتى بدون أن تدرى أنها ستجعل منه فيما بعد ذلك الفاتح الذى قهر العالم ودوخ الملوك .

ولقد أسبغت أولون ايكة دهائها وحنانها على تيموجين وحاولت جمع العشائر المغولية حوله ، وعندما أخفقت دفعها حنان الأم وعقلها المتزن إلى أن تتزوج من زعيم قبيلة يسمى مينكلك ايجيكه (٣) ، ليكون بمثابة الدعامة السياسية والعسكرية لولدها ، وبهذه الطريقة تفوق تيموجين على مناوئيه (٤) . ولم تتخل عنه طيلة حياتها بل كانت توجهه وتبصره

---

(١) د. العرينى : المغول ، ص٤٧ . معتمداً على مصدر لم يذكره .

(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٤١ – ٤٣ (ط. القاهرة ١٩٧٥م) .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧١ . ويذكر مؤرخ المغول أن تيموجين أدرك من كلام أمه أنها تميل أن تتخذ زوجاً لها ، لذلك زوجها من إيجيكة .

(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين إحتلالين ، ط. بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥ ، ج١ ص٧٤ .

وتربيه فأحسنت تربيته وخلعت عليه كل صفاتها ، ويؤكد ذلك مؤرخ المغول قائلاً أنه « بفضل جهود والدته ، أتيح له القيام بجلائل الأعمال[1] »، فأنجز الكثير من الأعمال ، وارتفع شأنه ، وأضحى الرجل القوى الذى تنشده سائر القبائل ، وأصبح من البارزين من رجال المغول الذين يتنازعون السيطرة على شرق منغوليا . وبفضل تشجيع والدته اجتذب إليه كبار الشخصيات فى قبيلته وأخضع المعارضين له فيها حتى سيطر عليها تماماً وأصبح « مستقلاً ومستعداً » ، على حد قول مؤرخ المغول[2] . وبفضل جهود والدته « بلغ مرتبة حكم العالم والسيطرة عليه»[3] . وبعد أن تربع تيموجين على العرش تحت اسم چنكيزخان كان يشاور أمه فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة ، كما كان يطلب مشاركتها معه فى تدبير شئون الدولة وتوجيه سياستها [4] . ولذلك لا نغالى حينما نقول أن أولون ايكه المرأة الوحيدة التى كان لها أعمق الأثر على ابنها امبراطور المغول وهى التى صنعت فاتح العالم .

وقبل أن نختتم حديثنا عن تأثير أولون ايكه فى بناء وتكوين شخصية چنكيزخان نود أن نشير إلى أن مؤرخ المغول رشيد الدين فى معرض حديثه عن أولون ايكه فى تربية ابنها چنكيزخان ، قد أقام مقابلة أو مقارنة بينها وبين امرأة أخرى من الأسرة المغولية الحاكمة وهى

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ؛ ص١٢٠ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ؛ ص١٧٠ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ ؛ أيضاً راجع شبولر : العالم الإسلامى ، ص٢٢ – ٢٤ ؛ د. العرينى : المغول ، ص٤٨ – ٥٠ ؛ د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٧ – ١٩ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ .

سيورقوقتيني بيكى(١) أو سرقويتي بيكى(٢) أو سورقوقتني بيكى(٣) أحب زوجات القاآن تولوى خان (٤) إليه ، حيث أظهر مؤرخ المغول اعجابه الشديد بسرقويتي بيكى ، بل ويعتبرها أفضل بكثير من والدة جنكيزخان. فيذكر أن سيورقوقتيتي بيكى كانت فى « غاية العقل والكفاءة ، وكانت فى مقدمة سيدات العالم ، ولها من الثبات والعفة والستر والصحة كل ما هو أكمل وأتم » (٥) . فقد أحسنت هى أيضًا تربية أولادها الأربعة وهم : منكوقاآن ، قوبيلاى قاآن ، وهولاكو خان وأريق بوكا (بوقا) (٦) . وكانوا صغاراً عند وفاة أبيهم تولوى ، فأحسنت تربيتهم ، وبذلت بكفاءتها جهوداً

---

(١) هكذا ورد إسمها فى رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦٠، ١٧٠ .

(٢) هكذا ورد إسمها فى الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٤ . وإن ذكرها فى موضع آخر تحت إسم سرقوتي بيكى . ج١ ص٧٩ سطر ٩ .

(٣) هكذا ذكرها برتولد : تركستان ، ص٦٧٠ . معتمداً على نص الجوينى صاحب جهانكشاى . على أن برتولد لم يكن دقيقًا فى قراءته لهذا الإسم فى كتاب جهانكشاى الذى ذكره بإسم سرقويتي بيكى أو سرقوتي بيكى . وربما اعتمد برتولد أيضًا على كتاب مؤرخ المغول رشيد الدين ، إلا أن رشيد الدين ذكرها تحت إسم سيورقوقتيتي بيكى كما ذكرنا بالمتن . كما تكتب أيضاً بطرق مختلفة مثل سرقوتي ، سرقوقتي ، وسرقوقيتي ، وقد أخذنا فى بحثنا هذا بالرسمين فنذكرها مرة تحت إسم سيورقوقتيتي بيكى ومرة سرقويتي بيكى اللذين ذكرهما كل من رشيد الدين ، والجوينى ، وهى إبنة جاكمبو أخى أونك خان ملك أقوام الكريت . وهبها جنكيزخان فى حياته إلى إبنه الرابع تولوى ، وكانت من الخواتين المحبوبات لدى تولوى . الجوينى : جهانشكاى ، ج١ ص١٢٠ ج١ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣٧ ج١ ، ص١٦٠ .

(٤) هكذا إسمه فى أغلب مصادر المغول . مثلاً رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣٧ ، وفى جهانشكاى : تولوى . الجوينى : جهانشكاى ، ج١ ص٧٢ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ . وسوف نتعرض لدور سرقويتي بيكى بالتفصيل فى موضعه من هذه الدراسة .

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦٠ – ١٦١ .

كبيراً لتربيتهم ، ولقنتهم الفضائل والآداب وألفت بين قلوبهم ، وجعلت بينهم الترابط والمودة ، ولم تدع أن يقع بينهم نزاع على الاطلاق حتى ولو قيد شعره [١] ، . كما ألفت بين قلوب زوجاتهم مع بعضهن ، وحافظت عليهم بحسن تدبيرها وسداد رأيها ، فلم يتخلفوا مطلقًا عن طاعة أوامرها قيد شعره ، [٢] . وسارت على نهج أولون ايكه فى تربية الأبناء الأربعة وبنفس أسلوبها ، وإن كانت - فى رأى مؤرخ المغول - أكثر صبراً من والده چنكيزخان وأفضل منها بكثير ، بل وأحرزت عليها قصب السبق . وتمثل ذلك فى أنه فى الوقت الذى كانت أم چنكيزخان تتوق لأن تتخذ لها زوجًا بعد أن استشارت ابنها تيموجين ، فزوجها بموافقته من مينكلك ايجيكة[٣] فى محاولة لتدعيم موقف ابنها سياسياً وعسكرياً ، فإن سرقويتى بيكى عندما طلب منها أوكتاى قآن أن تتزوج من ابنه كيوك خان ، رفضت طلب القاآن على أساس أن تتفرغ تمامًا وتكرس كل جهودها ووقتها لتربية أولادها وتهذيبهم حتى يصلوا إلى درجة الرجولة والاستقلال ، ولهذا السبب ، كما يعترف رشيد الدين ، كان المغول يفضلونها على أولون ايكه والده چنكيزخان[٤] . وبذلك وطبقًا لما ذكره رشيد الدين عن سرقويتى بيكى ينطبق عليها قول الشاعر :

فلو كان النساء كمثل هذى　　　لفضلت النساء على الرجال [٥]

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٠ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧١ .

(٤) شيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧١ .

(٥) إبن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ط. إكسفورد عام ١٩٦٣ ، ص٢٤٨ .

ويلاحظ أنه رغم تقديرنا للدور الكبير الذى قامت به سرقويتى بيكى فى تربية أبناء تولوى الأربعة لكى يصلوا إلى سدة الحكم ويتسلموا السلطة فيما بعد ، ورغم احترامنا لرأى رشيد الدين مؤرخ المغول فيما يتعلق بإعجابه المفرط بسرقويتى بيكى ، وتقديره الكبير لها وتفضيله اياها عن أولون ايكه أم چنكيزخان بل ويعتبر ، أنها أحرزت عليها (أى على أولون إيكه) قصب السبق فى هذا المجال ، إلا أننا نرى أن المقارنة التى عقدها مؤرخ المغول بين المرأتين مقارنة غير عادلة أو فى غير محلها . فيبدو أن رشيد الدين قد نسى أو تناسى - وهو فى غمرة حماسه الشديد واعجابه بسرقويتى بيكى - اختلاف ظروف وأحوال عصر كل امرأة عن الأخرى . ففى حين أن أولون ايكه وقفت وحدها فى الميدان هى وأبناءها، بعد أن تخلى عنهم القريب والصديق ، وعاشوا فى شظف من العيش بحياة قاسية بمعنى الكلمة ، فكان على أولون إيكه أن تبذل كل ما تستطيع من جهد لتحصل لأفراد أسرتها على القوت الضرورى ، فكانت تلتقط لهم الثمار وما ينبت من الأرض من نبات ، وعاشوا على صيد الحيوان والأسماك ، وتعرضوا لغارات وهجمات التايجيوت الذين حرصوا على اذلالهم ، وبذلت الأم أولون ايكه جهوداً ضخمة لتربية أبناءها ، وحاولت جهدها جمع العشيرة التى انفضت من حول أبنها ، ومن أجل ذلك دفعها حنانها وعقلها الرشيد إلى الزواج من رجل آخر دعماً لموقف ابنها تيموجين ، ولم يتخل البؤس عن أولون ايكه وأبناءها فترة طويلة ، فى وقت كانت سرقويتى بيكى سليلة أسر النبلاء وأرملة القاآن تولوى تعيش حياة رغدة هانئة وفى سعة من العيش ، ولم تعانى من الجوع والتشرد وقسوة الحياة ، ولم تواجه أية مناوئين أو أعداء بل وجدت التأييد من الجميع ، بل وعندما طلب منها أوكتاى أن تتزوج من ابنه كيوك خان ، رفضت متذرعة بحاجتها للتفرغ التام لتربية أرلادها ، فإنها فى

حقيقة الأمر لم تكن بحاجة لمثل هذا الزواج ، لمعرفتها التامة أن أبناء تولوى سوف يصلون إلى سدة الحكم وتسنم السلطة فى يوم من الأيام طبقًا لقوانين المغول فيما يتعلق بارتقاء العرش ، فى وقت كانت الامبراطورية المغولية فى أوج قوتها وتمتد امتداداً شاسعاً فى قارتى آسيا وأوربا ، ورسخت أقدامها واكتمل اطارها السياسى والعسكرى . ولهذا فإننا لا نتفق مع رواية رشيد الدين فيما يتعلق بالمفاضلة بين سرقويتى بيكى وأولون ايكه . بل إننا نرى أن أولون ايكه طبقًا لرواية رشيد الدين نفسه ومقابلتها بغيرها من الروايات، كانت أفضل بكثير من سرقويتى بيكى[1]، بل وتفوقها فى هذا المجال فهى ربت أبناءها على رأسهم تيموجين فى وقت لم يكن لهم ملك أو دولة أو امبراطورية مترامية الأطراف ، بل كانوا لا يملكون شيئاً ووقفوا بل معين ولا نصير ، وتمكنت أولون ايكه بشجاعتها وصبرها الطول وقوتها أن تصنع البذور الأولى لتكوين الامبراطورية المغولية فيما بعد ، فتلك المرأة الهائمة الشريدة الطريدة هى وأبناءها ، بعد وفاة زوجها ، أسست أو ساهمت بطريق غير مباشر فى تأسيس ملك من عدم ، وشكلت شخصية ابنها تيموجين وتجعل منه ذلك الفاتح الذى قهر العالم ودوخ الملوك ، ولهذا لم يكن رشيد الدين محقاً فى اقامة تلك المقابلة بين المرأتين ، وكان حرياً به مراعاة الدقة فى تلك المقارنة .

فيما يتعلق بزوجات جنكيزخان ودورهن السياسى الذين اضطلعوا فى الدولة المغولية فعلى الرغم من أن جنكيزخان كان له زوجات ومحظيات كثيرة ، إلا أن المصادر التى بأيدينا تكاد لا تسعفنا بمعلومات كافية حول

---

(١) يطلق أحد المؤرخين الكبار فى مؤلفه القيم على سرقويتى بيكى إسم آخر هو سورجكتاى Sorgagtani د. العرينى : المغول ، ص١٩٨ . ولم يذكر المصدر أو حتى المرجع الذى إستقى منه هذه التسمية .

الدور الحقيقى لهؤلاء الزوجات والمحظيات سواء أثناء حياته أو حتى بعد وفاته ، مثل دور بورته فوجين أو يسوى أو حتى يسونجين بيكى وزوجاته الأخريات ، وقد صمتت المصادر تماماً عن أى دور سياسى لهن فى ذلك العصر ، اللهم إلا من اشارات سريعة ونتف وشذرات مبعثرة تكاد لا تشفى غليل الباحث .

فالمعروف أن أول زوجة لچنكيزخان كانت تسمى بورته وكان أبوه قد خطبها له قبل وفاته وكانت ابنة زعيم القنقرات النازلين على نهر كيرولين [1] ، ولا تشير المصادر أو المراجع إلى أى دور سياسى أو عسكرى لها فى الفترات الأولى من النشاط السياسى والحربى لچنكيزخان. أما الزوجة الثانية فكانت أميرة صينية من أسرة كين وكانت تسمى يسوى (والتى عاشت بعد وفاته نحو ثلاثين عاماً) اتخذها چنكيزخان زوجة قبيل استيلاء - على بكين . وعلى الرغم من أنها لم تكن تتمتع بقسط وافر من الجمال ولم تنجب منه أطفالاً ، إلا أنها لقيت طوال حياتها معاملة طيبة تليق بها باعتبارها ابنة امبراطور عظيم ، وحتى بعد سقوط ملك أبيها ، ويبدو أنها كانت تعتبر ممثلاً للثقافة الصينية فى بلاط چنكيزخان[2]. والمرجح أنها أدت دوراً فى ذلك العصر من الناحية الثقافية أو الحضارية داخل البلاط المغولى ، رغم أن المصادر التى لدينا لا تشير لذلك على الاطلاق ، ويبدو أنها كانت ترافق زوجها فى حملاته،

---

(١) د . العرينى المغول ، ص٤٨ . معتمداً على مصدر لم يذكره . ويذكر أحد أقطاب الدراسات المغولية الحديثة رواية مخالفة لما ذكره د. العرينى فيشير إلى أن تيموجين تقدم بنفسه ليتزوج من إبنة أحد رؤساء القنقرات ، عندما بدأ نجمه يعلو ، فطلب منه أبوها مهراً لها عبارة عن فرو سمور أسود . د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ . معتمداً على مصدر لم يذكره .

(٢) د. العرينى : المغول ، ص ٦٠ - ٦١ . معتمداً على مصادر لم يذكرها .

وكانت فى معيتة فى آخر حملة قام بها لقتال مملكة سى – هيا Si - Hia التانجوتية فى اقليم كان – سو بالصين عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧م . ويبدو أنها لعبت دوراً فى انقاذ سكان المدينة عاصمة الاقليم وهى مدينة نتج هيا ، من الذبح على أيدى المغول خاصة وأن چنكيزخان كان قد قرر قبل وفاته ، أثناء تلك الحملة ، بقتل سكانها عند سقوطها ، وذلك عندما بذل ملك التانجوت جزءاً كبيراً من مملكته للامبراطورة يسوى ، الصينية الأصل ، للحيلولة دون ارتكاب المغول للمذابح بهذا الاقليم ، ووافقت الامبراطورة على ذلك (١) .

على أن أحب وأقرب زوجاته إليه كانت يسونجين بيكى ، بل كان چنكيزخان يفضلها عليهن جميعًا ، وكان يحب أبناءه من هذه الزوجة ويقدمهم على أبنائه الآخرين . فهى أم أبناءه الأربعة جوجى وجغتاى وتولوى وأوكتاى (أوكداى) وكان يعهد إليهم بجلائل الأعمال ، كما كان يعتمد عليهم اعتماداً كلياً فى ادارة الامبراطورية المترامية الأطراف (٢) . ولا تشير المصادر والمراجع لدينا بأى دور سياسى أو عسكرى أو حتى اجتماعى قامت به يسونجين بيكى مثلها مثل بقية الزوجات والمحظيات الآخريات (٣) .

أما ما يتعلق ببنات چنكيزخان ودورهن السياسى والعسكرى فى الدولة المغولية فلدينا نص هام أورده مؤرخ المغول رشيد الدين يتعلق

---

(١) د. العرينى : المغول ، ص١٤٤ – ١٤٥ . معتمداً على مصادر لم يذكرها .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦ – ١٧ ؛ أيضًا د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٠٩ ، د. صلاح نوار : الطوائف المغولية ، ص١٢ح٣.

(٣) هناك ذكر لإحدى زوجات چنكيزخان تعرف بإسم قولان خاتون إبنة طايرسون زعيم قبيلة أوهات مركيت . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧ .

بأصغر بنات جنكيزخان وأحبهن إليه [1] ، وكانت تسمى آلتالون . ويبدأ دورها عندما وقع خلاف بين قادة المغول فيمن يخلف أوكتاى قاآن على عرش المغول بعد وفاته [2] ، إذ لم يكن من بين آل جنكيزخان من تلتف حوله القلوب . فالحوليات المغولية التى جرى تدوينها فى ذلك الوقت وعلى رأسها تاريخ جهانكشاى وجامع التواريخ تشير بوضوح إلى وجود حزب معارضة قوى فى صفوف الارستقراطية المغولية الحاكمة كان يعترض على تولى كيوك العرش بل وعلى جميع سلالة أوكتاى . وكان رأى هذا الحزب أن يؤول العرش إلى تولوى بطل آل جنكيزخان وإلى أولاده من بعده وكان أكبرهم منكو الذى يصغر كيوك بعامين فقط [3] . ويرجح أنه كان يتزعم هذا الحزب المعارض الأميرة آلتالون وزوجها جاورد ساجان وأشار إلى ذلك مؤرخ المغول رشيد الدين بالتلميح دون التصريح [4] ويرجح أنها رفضت حضور القوريلتاى الذى يتم فيه انتخاب أو اختيار القاآن الجديد ، فاعتبر أبناء أوكتاى ذلك تصرفاً يبطن العصيان

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٣ ، ويلاحظ أن رشيد الدين لم يذكر اسم ابنه جنكيزخان .

(٢) برتولد : تركستان ، ٦٨٢ . وكان زوجها يلقب بلقب جاورد ساجان . راجع رشيد الدين: جامع التواريخ ، ص١٢٣ . ومن المهم جداً أن نشير لوجود ابنة ثانية لجنكيزخان سيرد ذكرها فى الدور العسكرى للمرأة المغولية استناداً على النص الهام والفريد الذى أورده عنها الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٧١ وللاستزادة عن ذلك الخلاف حول العرش بعد وفاة أوكتاى راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٢ – ١٢٣ ، الجوينى: جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ١٢٣ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣١ – ١٣٢ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٣ ، ويلاحظ أن الجوينى لم يشير على الإطلاق إلى إبنه جنكيزخان الصغرى تلك أو زوجها أو أنهما كانا على رأسى حزب المعارضة داخل الأسرة الحاكمة . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣١ – ٢٣٢ .

وعدم الرضا والانسجام قلبًا وقالباً مع السلطة المركزية فى مقرها (١) ، مما دفع بأبناء أوكتاى إلى قتلها أو اعدامها بلا محاكمة ولا تحقيق (٢) ، لوضع نهاية لأية خلافات أو معارضة أو صراعات حول خليفة أوكتاى مخالفين بذلك قول أبيهم وخرجوا على القانون والدستور القديم ، وبدون مشورة كبار الأمراء من أفراد الأسرة الحاكمة (٣) ، وضاربين بقواعد ياسا جنكيزخان عرض الحائط والتى تنص على عدم قتل أو اعدام أى فرد من أفراد الأسرة المالكة إلا بعد محاكمة عادلة وبقرار جماعى (٤) . وهذه الروايات تؤكد أن المغول لم يقيموا أية اعتبار أو كرامة للمرأة التى تعبر عن رأيها بصراحة وشجاعة فى المجتمع المغولى حتى ولو كانت من طبقة النبلاء أو من الأسرة الحاكمة أو حتى لو كانت ابنة الامبراطورية القاآن الأعظم جنكيزخان ، وذلك حسمًا لأية خلافات داخل الأسرة الحاكمة ، أو قيام الفتن والصراعات حول العرش المغولى ومن أجل ذلك أعدموا ابنة جنكيزخان الصغرى وأحب بناته إلى قلبه . وتوضح الروايات

---

(١) من المعروف لدى العرف المغولى أن من يتخلف عن حضور القوريلتاى وإنتخاب القاآن من أفراد الأسرة الحاكمة كان يقدم للمحاكمة العلنية تمهيداً لإعدامه ولا يتم إعدامه إلا بعد محاكمة عادلة وبقرار جماعى ، كما ورد فى ياسا جنكيزخان وذلك على حد قول السفير البابوى والمبشر الدينى وشاهد عيان هذه الأحداث يوحنادى بلانوكاربينى .
John de plano Carpini .

والتى سجلها فى مذكراته . راجع :

Carpini, J.P., History of Mongols, ed. by C.Dawson entitled " The Mongol Mission," London and New York. 1955, p. 28 .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٣ ، ويؤيده برتولد : تركستان ، ص٦٨٢ . معتمداً على مصادر .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٣ .

(٤) برتولد : تركستان ، ص٦٨٢ .

أيضًا مدى الدور المؤثر الذى يمكن أن تؤديه المرأة المغولية فى المجال السياسى خاصة فيما يتعلق بقضية هامة وحساسة وهى اختيار أو تنصيب قاآن جديد على العرش المغولى .

واستكمالاً لدور المرأة المغولية القوى فى اقرار الأمور فى الدولة من الناحية السياسية وخاصة فى القضية الهامة والحساسة حول وراثة العرش المغولى عند وفاة القاآن الأعظم ، توضح الحوليات المغولية الدور الحيوى والهام الذى قامت به سرقويتى بيكى أو سيورقوقتيتى بيكى أرملة تولوى فى حسم مشكلة الخلاف الخطيرة التى قامت حول وراثة العرش المغولى بعد وفاة أوكتاى قاآن عام ٦٣٩ هـ / ١٢٤١م ، والتى هددت بقيام حرب أهلية بين أعضاء الأسرة الحاكمة وعلى النحو الذى أكدته الحوليات المغولية لدينا . ويبدأ ذلك بظهور بعض المشاكل أو الخلافات حول من يتسلم العرش المغولى بعد وفاة أوكتاى إذ لم يكن من بين آل چنكيزخان من تلتف حوله القلوب [١] . وانتشرت شائعات مؤداها أن چنكيزخان قد أوصى بأن يؤول العرش بعد موت أوكتاى إلى ابنه الثانى كوتان ، غير أن كوتان هذا كان مصاباً بعلة لم يكن يرجى الشفاء منها ، ولذا أراد أوكتاى أن يخلفه على العرش ابنه الثالث كوجو Kochü لأنه كان يؤثره بحبه ، ولكنه توفى قبل والده ، لذا وقع اختيار القاآن على حفيده شيرامون ابن كوجو [٢] ليكون ولياً للعهد ، غير أن المغول عدوا شيرامون حدثاً صغير

---

(١) يلاحظ إننا إضطررنا هنا – وسنضطر فيما بعد – إلى تكرار مثل هذا الحدث المذكور فى الحوليات المغولية أكثر من مرة فى أكثر من موضوع من هذه الدراسة حسبما تقتضيه جزئياته ولأنه من الأهمية بمكان بالنسبة للباحث خاصة وأن العديد من النساء المغوليات قد لعبن دوراً كبيراً فيه مثل توراكينا خاتون وحاجبتها الخاصة وكاتمة أسرارها فاطمة خاتون ، ومعهم سرقويتى بيكى كما سنوضحه فى موضعه من هذه الدراسة .

(٢) يسميه الجوينى : سيرامون بن كوجر . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣١ .

السن ، ولذا لم يعد هناك غير كيوك الابن الأكبر لأوكتاى [١] ، وكان مشغولاً مع قوات المغول بفتح روسيا وبولندا عندما أرسل أبوه يستدعيه إلى العاصمة قراقورم حين اشتد عليه المرض ولكن الأب لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يرى ابنه [٢] ، وعلى هذا النحو ظهرت مشكلة وراثة العرش خاصة وأنه لم يكن هناك ترتيبات معينة لوراثة العرش ، فقد عين كبراء الدولة وأعيانها توراكيناخاتون [٣] أرملة أوكتاى وصية على العرش إلى أن يعقد مجلس القوريلتاى لانتخاب الخان الجديد [٤] . والواقع أن تعيين توراكيناخاتون يمثل دلالة أخرى على المركز الفريد والقوى التى كانت تحتله المرأة المغولية وتأكيداً أيضًا على تقديرهم الكبير للمرأة إلى حد أنهم كانوا يجلسونها قانوناً بعد وفاة زوجها حتى يتم تشكيل القوريلتاى وانتخاب الخان الجديد للمغول ، كما سنوضحه فى حينه .

ويبدو أنه كان هناك اتجاه قوى بين أفراد الأسرة المغولية لتوليه كيوك

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٢ – ١٢٣ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣١ – ٢٣٢ . ويذكر الجوينى عن كيوك أنه كان أكثر غلبة وإقتحاماً ، وشططاً . وهو الأكبر سناً من أخوته وأكثر ممارسة لصعاب الأمور ، وشاهد السراء والضراء ، وذكر أن كيوك لم يتصف بتلك الأخلاق السمحة التى كانت تميز أبوه أوكتاى ، وقد شابه أباه فقط فى ولعه الشديد بالخمر والنساء ، وأن إنغماسه فى الملذات حوله إلى شخص عبوس كئيب سقيم النفس والجسد . ويذكر السفير الملكى يوحنا كاربينى أنه لم يكن يبتسم قط . برتولد: تركستان ، ص٦٧٦ .

(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٢٥ .

(٣) سوف نعرض لدورها فى موضعه المناسب فى تلك الدراسة .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٢ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ؛ أيضاً شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٠ . وقد إستمرت وصاية توراكينا خاتون على العرش أربع سنوات ٦٣٩ – ٦٤٤ هـ / ١٢٤١ –١٢٤٥ م .

قاآنا ، إلا أن المدونات المغولية التى جرى تدوينها وقتذاك تشير بوضوح إلى وجود حزب قوى داخل الطبقة الارستقراطية المغولية الحاكمة يعترض على توليه كيوك العرش ، بل وعلى جميع ذرية أوكتاى ، وكان رأى هذا الحزب أن يؤول العرش إلى تولوى بطل آل چنكيزخان وإلى أولاده من بعده ، وكان أكبرهم منكو الذى كان يصغر كيوك بعامين (١) ، وكان على رأس هذا الحزب آلتالون ابنه چنكيزخان ، على النحو الذى ذكرناه من قبل ، والتى دفعت حياتها ثمناً لمعارضتها تلك عندما تم اعدامها بدون محاكمة على أيدى أبناء أوكتاى (٢) . وبذلك واجه أفراد الأسرة الحاكمة موقفاً صعباً حول مشكلة وراثة العرش والتى كان من الممكن أن تؤدى إلى حرب أهلية بين أبنائها .

وكيفما كان الأمر قد تقرر حل هذه المسألة من غير اللجوء إلى العنف أو اراقة دماء وذلك بعقد مجلس للقوريلتاى (٣) . وقد حضر هذا

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٣ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٢ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٧٥ معتمداً على نص الجوينى فقط .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٣ . يؤيده برتولد : تركستان ، ص٦٨٢ .

(٣) كان القوريلتاى بمثابة جمعية عمومية شعبية مغولية ، يحضره الصغير والكبير من ذوى المسئولية فى دولة المغول ، وجعل چنكيزخان عقاب من يتخلف عن إجتماعه الموت إلا بعذر مقبول وقاهر . وورد له نص فى ياسا چنكيزخان أو التوراه الچنكيزخانية حيث يلتقى فيه كافة الأمراء من أسرة چنكيزخان يأتون إليه من كافة أرجاء الإمبراطورية ومختلف أقاليمها ، كل كبير أسرة من أسر هذه الخان على رأس وفد بنى أبنه ، وحضوره مفروض أيضاً على جميع القادة العسكريين ، ورؤساء العشائر وكافة أمراء وولاة أقاليم الإمبراطورية ، وموظفيها . ومن لم يحضر منهم فإن عقابه هو الآخر الموت بعد التعذيب حياً ، ولأن تغيبه يؤخذ على أنه مخالفة أو معارضة صريحة لسلطان المغول ، ونوع من العصيان والخروج على السلطة المركزية فى مقرها ، فمن تخلف يقدم للمحاكمة العلنية تمهيداً لإعدامه . راجع Carpini, History of the Mongols, p. 28 .

الاجتماع جميع أبناء تولوى ومعهم والدتهم كما حضره أيضاً كل آل جغتاى ، أما باتو فلم يحضر بنفسه ولكنه أرسل خمسة من أخوته بعد أن اعتذر عن الحضور بحجة مرضه (١) . وامتازت هذه الجمعية العامة بوفرة عدد من حضر من ممثلى الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول (٢) . ولقد أحيط هذا القوريلتاى الذى عقد فى منغوليا عام ٦٤٤هـ / ١٢٤٥م باحتفالات مهيبة أكثر مما كان عليه الحال مع قوريلتاى أوكتاى وأنزل الضيوف فى ألفى خيمة بيضاء . ولدينا وصف حى ومثير أورده لنا الجوينى عن هذا الاجتماع (٣) ، كما ترك لنا يوحنا كاربينى ، الذى كان حاضراً لهذا الاجتماع كممثل لبابا روما ، وصفاً شيقاً هو الآخر عن هذا القوريلتاى (٤) .

- وطبقاً لما ذكره كاربينى فإن القوريلتاى يعتبر بذلك السلطة العليا فى الإمبراطورية المغولية . وهناك وصف حى لمثل هذا الإجتماع والبروتوكولات التى تطبق فيه فى الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٠ – ٢٣٣ ؛ أيضاً راجع إحدى الدراسات المستنيرة عن القوريلتاى للدكتور سعد الغامدى : الياسا ؛ مجلة كلية آداب الاسكندرية ؛ مجلد ٣٧، ص٩١ – ٩٥ . معتمداً على مصادر ومراجع .

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ ، لذلك كان إختيار كيوك مؤشراً لإندلاع العداوات والخصومات مع باتو لأن كيوك تضايق من عدم حضور باتو القوريلتاى الخاص بإختياره قاآناً ، وأسرها فى نفسه وأخذ يضمر الغدر لباتو فيما بعد . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٢) يقال أن الخليفة العباسى نفسه أرسل مندوباً عنه ، كما أرسل علاء الدين زعيم إسماعيلية آلموت رسله أيضاً ، ربما كان هذا بدافع الخوف والفزع وتفادياً لنقمة المغول. كما حضره من المسيحيين إثنان أحدهما سمباد أخو هيتوم ملك قليقيا ، والآخر يوحنا كاربينى . وأشار الجوينى إلى حضورهما بالتلميح دون التصريح عندما ذكر أنه حضر القورلتاى ؛ رسل من الفرنجة ، راجع الجوينى : جهانكشاى، ج١ ص٢٣٠ –٢٣١ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ص٢٣٠ –٢٣١ .

(٤) - Carpini, History of the Mongols, pp. 28 - 29 .

ويذكر الجوينى أن سرقويتى بيكى كانت أول الحضور هى وأولادها ويصفها بموكبها وكأنها إحدى الخواتين غير المتوجه حيث وصلت ، بادئ ذى بدء سرقويتى بيكى وأولادها بأهبه وعدة بما لاعين رأت ولا أذن سمعت (١) ، . وهذا النص يوضح مدى حرص سرقويتى بيكى على أن تكون أول الحضور لعلمها أن وجودها ، وبما عرف عنها من رزانة وشجاعة ، سيكون العامل المؤثر فى حسم الخلاف حول انتخاب القاآن الجديد .

وبدون الدخول فى تفاصيل عقيمة تبعدنا عن موضوع الدراسة عما دار داخل مجلس القوريلتاى حول انتخاب القاآن الجديد ، ففى هذه الجلسة التاريخية تم انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول . وتشير رواية الجوينى إلى الدور الفعال والحيوى لسرقويتى بيكى حيث يذكر وقوفها وتدعيمها لتوراكيناخاتون فى انتخاب ابنها كيوك ، خاصة وأن توراكيناخاتون قوبلت بمعارضة شديدة من باتو الذى كان يطمع بالوصول إلى العرش ، كونه من أكبر أبناء چنكيزخان ، ولم يكن يرضى بزعامة كيوك لأسباب دينية وثقافية (٢) . بل إن رأى سرقويتى بيكى كان يمثل الكفة الراجحة

- أيضاً شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤١ معتمداً على نص كاربينى هو أيضاً . ويلاحظ أن كل من سمباد أخو هيثوم ملك قليقية ، يوحنا الكاربينى اللذان حضرا هذا القوريلتاى دون كل منهما كتاباً وصفا فيه رحلتهما إلى المغول ، ويعد الكتابين مصدراً هاماً يمدنا بمعلومات هامة عن الحقائق التاريخية والجغرافية لممالك المغول فى ذلك العهد. راجع براون : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى ، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص٥٧٤ ؛ أيضاً د. فؤاد الصياد فى حاشية كتاب جامع التواريخ ، ص١٨١ ح (٢) .

(١) الجوينى : جهانكشاى ،ج١ ص٢٣٠ .

(٢) هذا هو رأى شبولر : العالم الاسلامى ، ص٤٠ ، ونحن نؤيده فى هذا الرأى .

فى اختيار كيوك قاآن للمغول ، بل ويشير الجوينى ، بالتلميح دون التصريح ، أن المجتمعون كلهم قد نزلوا على رأى سرقويتى بيكى وأولادها حول اعتلاء كيوك عرش القاآنية (١) ، ولم يجرؤ أحد على مخالفة أمرها ، على حد تعبير الجوينى (٢) ، وأكدت بذلك مدى تمسكها بتعاليم چنكيزخان وقوانين الياسا الخاصة بتولية أو انتخاب الخان الأعظم للمغول (٣) . ويؤكد وجهة نظرنا تلك حول الدور الحيوى الذى أدته سرقويتى بيكى فى ذلك القوريلتاى ، اعتماداً على نص الجوينى صاحب الجهانكشاى ، أن القاآن الجديد كيوك ، بعد انتخابه مباشرة وجلوسه على عرش الخانية ، أثنى أمام جميع المجتمعين على سيورقوقتيتى بيكى وأولادها وشكر لها دورها وموقفها القوى فى مجمع القوريلتاى فى مؤازرة توراكيناخاتون وفى تدعيم انتخابه ، كما أثنى عليها وعلى أبنائها ، لأنهم من بين سائر أمراء الأسرة الحاكمة قد استمسكوا بالياسا وامتنعوا عن كل

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٢ . ويذكر المؤرخ الألمانى شبولر أن إختيار كيوك خاناً أعظم للمغول كان يعنى إنتصاراً للمسيحية بتأثير من أمه التى كانت مسيحية نسطورية وإنتكاسا للأفكار والعقائد والتقاليد المغولية القديمة . شبولر : العالم الاسلامى ، ص٤١ ، ويوافقه على هذا الرأى د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٢٧ - ١٢٨ . والواقع أن شبولر كان محقًا تماماً فى رأيه هذا ولا غرو فى ذلك لأن تولى تربيته مسيحى يدعى قداق Qadag ثم وجد أنه واقعاً تحت تأثير وزير مسيحى آخر هو جينقاى. الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ . ويذكر برتولد أن حكم كيوك القصير الأمد لم يكن خيراً للإسلام وللعلوم الإسلامية . برتولد : تركستان ، ص٦٧٨ . والواقع أن برتولد كان محقًا فى رأيه هذا على النحو الذى سنوضحه فى حينه عند التعرض للدور السياسى الذى قامت به توراكيناخاتون .

(٢) الجوينى : جهانشكاى ، ج١ ص٢٣٥ سطر ١٢ .

(٣) يذكر رشيد الدين أنه من المؤكد أن سرقويتى بيكى بما توافر لها من عقل وكفاءة جعلت مرتبة أبناءها تفوق مرتبة أبناء عمهم ، وأوصلتهم إلى منصب القاآنية والسلطان فيما بعد . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

تصرف طائش خلال فترة خلو العرش [1] . ولولاها ولولا تمسكها بقوانين الياسا فلربما جرت أنهار الدماء بين أفراد الأسرة المغولية حول العرش الذى كان مطمحاً للطامعين من أمثال أوتكين [2] أخو چنكيزخان [3] ، الذى قام بمحاولة لانتزاع العرش بالقوة والغلبة أثناء فترة وصاية توراكيناخاتون، وعبر عن ذلك رشيد الدين قائلاً « أنه فى غضون تلك الأحوال ، لم يكن كيوك قد وصل بعد ، أراد أوتجكين نويان أخو چنكيزخان أن يستولى على العرش بالقوة والغلبة » [4] ، لولا صلابة موقف سرقويتى بيكى من تلك المحاولة . ولهذه الأسباب واعترافاً بفضلها الكبير أسند إليها كيوك مهمة توزيع الهدايا باسم القاآن على الحاضرين بمجلس القوريلتاى [5] ، كما أنه عين أبنها الأكبر منكو (مانكو)[6] ومعه هردو [7] الابن الأكبر لجوجى للحكم فى قضية أخى چنكيزخان المدعو أو تكين المتهم بمحاولة الاستيلاء على العرش المغولى فى فترة خلوة

---

(١) وأكد على ذلك أيضاً مؤرخ المغول بقوله « أما سور قوقتيتى بيكى وأبناؤها فكانوا بيض الوجوه ، رافعى الرؤوس ، فخورين ، إذ أنه لم توجه إليهم أية مخالفة للياسا وكان كيوك خان يتمثل بهم فى حديثه للآخرين ، ويثنى عليهم ». رشيد الدين : جامع التواريخ ؛ ص١٨٣ .

(٢) هكذا إسمه فى الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٥ ، ٢٢٩ . ويسميه رشيد الدين أوتجكين نويان . رشيد الدين : جامع التواريخ ص١٧٨ . ويسميه برتولد : أوجكين . برتولد : تركستان ، ص٦٧٦ .

(٣) رجع الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٥ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٨ .

(٥) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٣٤ .

(٦) سوف نعرض لإختلاف مسميات إبن سرقويتى بيكى فى موضعه المناسب .

(٧) هكذا ورد إسمه فى الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٥ ، ويسمه برتولد : أوردا . برتولد : تركستان ، ص٦٧٦ .

بالقوة العسكرية [1] . ويذكر برتولد أن تلك المحكمة التى شكلها كيوك لمحاكمة هؤلاء قد أصدرت أحكاماً باعدام بعض النبلاء دون الاشارة إذا كان شقيق چنكيزخان من بينهم [2] .

ولدينا رواية ساقها لنا رشيد الدين حول موقف سيورقوقتيتى بيكى من انتخاب كيوك تثير الدهشة والغرابة فى آن واحد ، إذ يورد لنا عبارة مؤداها أن سرقويتى بيكى كانت تتوجس خيفة من كيوك ، بل وكانت تعارض انتخابه أو ارتقاءه العرش وذلك بالتلميح دون التصريح ، وذلك عندما أرسلت رسالة فى الخفاء إلى باتو أحد المعارضين الأقوياء لكيوك وأحد الطامعين الأقوياء فى ارتقاء العرش المغولى ، تذكر له فيها عن عزم كيوك القضاء عليه قائلة « إن مجيئ كيوك إلى تلك النواحى لا يخلو من خدعه » ، فأزداد باتو تخوفاً من ذلك ، وصار يترقب وصول كيوك خان فى حزم واحتياط [3] . وهذه الرواية تتعارض مع رواية الجوينى حول موقف سرقويتى بيكى ، كما أنها لا تتفق مع رواية يوحنا الكربينى الذى كان حاضراً لهذا المجلس ، كما أنه لا يوجد ما يؤيدها من قبل المصادر التى لدينا ولا حتى المراجع الحديثة ، ولا تتفق حتى مع مجريات الأحداث والأمور التى جرت فى مجلس القوريلتاى ، والتى وقعت

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٤ –٢٣٥ . ويلاحظ أن رواية الجوينى حول محاكمة أخو چنكيزخان إتسمت بالغموض والمراوغة والتعتيم أيضًا – إذا ما صح هذا التعبير – فلا يشير إلى المدى الذى وصلت إليه المحاكمة ، ولم يوضح إذا كانت المحاكمة إنتهت بإعدامه أم لا .

(٢) برتولد : تركستان ، ص٦٧٦ . معتمداً على نص الجوينى ؛ أيضاً :

D'ohsson, Histoire des Mongols, To II, pp. 201 - 204 .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ؛ ص١٢٢ .

بعد انتخاب كيوك ، فهى لا تعتمد على أية أدلة أو أسانيد منطقية قوية بل تتسم بالتخبط والاضطراب .

إن رواية رشيد الدين توضح لنا – فى موضع آخر – مدى النفوذ القوى الذى كانت عليه سرقويتى بيكى من الناحية السياسية والادارية حيث كانت تتدخل فى تعيين حكام الأقاليم التى تحتويها الامبراطورية المغولية وتمثل ذلك في عهد أوكتاي قاآن نفسه [1] (٦٢٦ – ٦٣٩ هـ / ١٢٢٨/ ١٢٢٩ – ١٢٤٩م) . فيشير رشيد الدين إلى تعيين سرقويتى

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٤٩ – ٥٤ يعتبر أوكتاى الذى إختاره جنكيزخان ليخلفه فى الحكم أذكى إخوته ، ولم يقع إختيار جنكيزخان عليه لما إشتهر به من النشاط والقوة وشدة العاطفة ، بل لما ورثه أيضاً من الإدراك السليم والصلابة ، ويروى صاحب كتاب طبقات ناصرى أن أوكتاى كان ملكاً كريماً نبيل الخلق طيب المعاملة للمسلمين عكس أخيه جغتاى تماماً . الجوزجانى : طبقات ناصرى ، نشر وليم ناسوليس ومولوى خادم حسين ، كلكتة ١٨٦٤م ، ص٣٨٢ . وكان من صفاته أيضاً البساطة والإدمان على الشراب والمزح الشديد ولين الجانب والسخاء ، ويذكر مؤرخ المغول أنه رغم إجماع القوريلتاى على تعيينه قاآن أعظم للمغول إلا أنه حاول التنحى والاعتذار عنه بحجة أنه غير مؤهل لتولى المنصب الخطير . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٩ – ٣٠ ؛ أيضاً د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١١١ ؛ د. العرينى : المغول ، ص١١١ . ويرجع إليه الفضل الأكبر فى إدخال النظم الإدارية وتوحيد الدولة إقتباساً من النظم الصينية ، وإنشاء حاضرة للمغول فى الموضع الذى إقترحه جنكيزخان من قبل ، والذى كان معروفاً عن الترك المغول بإسم مدينة أوردو باليق أو باليغ (البلاط أو معسكر باليغ) والتى عرفت بإسم قراقورم نظراً لقربها من جبال قراقورم . وكان الحكمة من إختيار موقع قراقورم كحاضره للمغول لإدارة منغوليا وفى توثيق الصلة بين الموطن الأصلى لآل جنكيزخان عند منابع أونون وكرولين وبين أقطاع أوكتاى على نهر إرتش وايميل . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١ . وراجع رواية الجوينى التفصيلية حول بناء مدينة قراقورم واتخاذ أوكتاى لها حاضرة . الجوينى : جهانكشاى ؛ ج١ ص٢١٨– ٢١٩ ؛ أيضًا د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٢٢ – ١٢٣ ؛ د. العرينى : المغول ص١٦٤ – ١٦٥ . معتمداً على مصادر ومراجع لم يذكرها .

بيكى لأحد الأمراء ويسمى بيكه على أحد أقاليم ايران [1] . وفى موضع آخر يشير إلى قيامها بتعيين أمير يسمى جيقة للاشراف على اقامة مراكز للبريد لربط كل ولايات وممالك المغول من أقصاها إلى أقصاها [2] .

ومادمنا فى معرض الحديث عن الدور الكبير والممتد لسرقويتى بيكى أثناء قاآنية أوكتاى فسوف نتوقف قليلاً لنشير إلى الدور السياسى الذى قامت بهِ شقيقتها أبيقة بيكى وكان موطنها بلاد الخطا [3] ، أثناء وجود سرقويتى بيكى فى قراقورم وعند زيارتها السنوية لحاضرة المغول للتشاور مع شقيقتها وتقديم فروض الطاعة والولاء للقاآن أوكتاى والتمتع بالمشاركة فى الولائم والشراب جرياً على عادتها [4] ، ومن أجل أن يظهر القاآن احترامه لسرقويتى بيكى وشقيقتها ، فإنه جعل من ابن أبيقه بيكى باروجى [5] أو باورجى [6] أى الطاهى الخاص بالقاآن والذى كان يقدم له الشراب بنفسه أيضاً [7] على حد تعبير مؤرخ المغول الذى انفرد

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٤٩ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٥٤ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ . ويلاحظ أن رشيد الدين هو المؤرخ الوحيد الذى إنفرد بذكر هذه الرواية الخاصة بدور أبيقة بيكى ، ولدينا نص لرشيد الدين يشير إلى إنها كانت زوجة جنكيزخان . رشيد الدين : جامع التواريخ . ص٩٧ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ١٢٣ ، ص ٦٣ .

(٦) هكذا إسم هذه الوظيفة فى د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٥٥ .

(٧) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٢ – ٦٣ . ويلاحظ أن هذه الوظيفة (باروجى) قد أخذها سلاطين المماليك البحرية عن المغول وعلى رأسهم الظاهر بيبرس الأول ضمن وظائف أرباب السيوف وعرف صاحبها باسم ، شد الشراب خاناه ، وكان صاحبها يشرف على الشراب خاناه السلطانية وتاره يكون صاحبها مقدماً وتارة يكون طبلخاناه . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٢١ ، ج٥ ص٤٦٩ . وهى تعتبر أحد الوظائف =

دون غيره من المؤرخين بذكر هذه الرواية . وهذا تأكيد على مدى المكانة الفريدة التى تمتعت بها المرأة المغولية وابنها .

ويبدأ دور أبيقه بيكى بمرض القاآن أوكتاى ثم وفاته عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٢م . ويذكر رشيد الدين أن وفاته جاءت على أثر الاتفاق بين بيكى الصغرى وابنها باورجى القاآن ، بأن يقدم إليه كأساً من الشراب الذى تجرعه ثم توفى وهو نائم بسبب الافراط فى الشراب (١) . وسرعان ما أشارت أصابع الاتهام من قبل بعض الخواتين والأمراء بأن وفاة القاآن أوكتاى تمت بطريقة غير طبيعية ، واتهموا كل من بيكى الصغير وابنها بقتله وذلك بأن دسا له السم فى الكؤوس التى قدمت إليه فى تلك الليلة وأدت إلى وفاته (٢) . وهذه الرواية قد تشير لأول وهلة إلى الدور القوى للمرأة المغولية لدرجة أنها سمحت لنفسها حتى باغتيال القاآن الأعظم ممثلاً فى ذلك الاتهام الذى وجه إلى بيكى الصغرى وابنها بقتل القاآن .

ويلاحظ أن العبارة التى أوردها رشيد الدين بأن أبيقه بيكى ، جاءت فى السنة الثالثة عشرة من جلوس القاآن . وبالاتفاق مع ابنها الذى كان يعمل طاهياً قدمت لأوكتاى قاآن كأسًا ، فتوفى وهو نائم بسبب الافراط فى الشراب ، (٣) ، قد توحى بصدق الاتهام الموجه إلى بيكى وابنها

- المستحدثة فى التنظيم الادارى لدولة المماليك البحرية وتمثل أحد مظاهر المؤثرات المغولية على النظام الادارى لدولة المماليك الأولى فى مصر . للاستزادة عن ذلك راجع د. صلاح نوار : الطوائف المغولية فى مصر وتأثيراتها ، ص٦٢ - ٦٣ . معتمداً على مصادر ومراجع .

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ .

باغتيال القاآن فعلاً بدس السم له ، إلا أننا لا نصدق ما ذكرته هذه الرواية ولا ذلك الاتهام الموجه من بعض الخواتين والأمراء إلى بيكى وابنها لأنه لا يعتمد على أية أدلة أو أسانيد منطقية ، خاصة وأن رشيد الدين نفسه استدرك فى نهاية العبارة بقوله « فتوفى (أى أوكتاى) بسبب الافراط فى الشراب » . كما أنه يذكر فى موضع آخر من روايته كيف كان القاآن مولعًا إلى أقصى حد بالشراب والادمان على الخمر ، وكان يسرف فى ذلك فيزداد ضعفاً يومًا بعد يوم ، ولم يكن يتيسر حتى لأقرب المقربين إليه أو حتى أصفيائه منعه من الشراب ، رغم ما بذلوه من جهود كبيرة للحيلولة دون ادمانه (١) . ويذكر رشيد الدين نفسه أنه وصل الأمر إلى حد أن أخاه جغتاى عين أميراً باسم الشحنة لمراقبة أوكتاى بحيث لا يدعه يتناول سوى عدداً معينًا من الكؤوس ، ورغم أن ذلك الأمير المستحفظ صار يقدم الشراب للقاآن وينادمه حتى صير نفسه من خواصه المقربين ، إلا أن ملازمته للقاآن لم تؤد إلى أية فائدة » (٢) .

ويؤكد لنا براءة أبيقه بيكى وابنها باورجى القاآن من ذلك الاتهام بدس السم للقاآن أن ايلجيداى نويان الذى كان أخًا فى الرضاعة لأوكتاى وأحد الأمراء الكبار لقبيلة الجلائر تصدى للدفاع عن أبيقه بيكى وابنها ودحض هذا الاتهام قائلاً « ما هذا الكلام الهراء ! أن ابن أبيقه بيكى طباخ ، وكان يقدم الشراب دائمًا وإن القاآن دومًا يفرط فى الشراب ، فلماذا نبيح لأنفسنا بأن نسيئ إلى القاآن ونقول أنه مات بفعل الآخرين»(٣) . ولم يكتف بهذا بل أنه حذر الخواتين والأمراء وهددهم بألا



(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٢ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ .

يخوضوا فى هذا الحديث ثانيه وأن يخوضوا فى حديث غيره [١] . وبذلك أكد أخو القاآن فى الرضاعة براءة بيكى الصغرى وابنها . ويبدو أن مؤرخ المغول الذى أورد لنا هذه الحادثة كان مقتنعاً هو أيضاً ببراءة بيكى وابنها لأنه يذكر فى موضع آخر من روايته أن ايلجيداى نويان الذى تصدى لتبرئه بيكى وابنها كان رجلاً عاقلاً ، عرف أن سبب الوفاة هو الافراط فى الشراب والادمان عليه وأن عاقبه الافراط فى الشراب تكون وبالاً على صاحبها [٢] . ونتفق بذلك مع رأى المؤرخ الروسى برتولد بأن الافراط فى الشراب كان هو السبب الرئيسى لموت القاآن [٣] .

والمرجح أن يكون هذا الاتهام لبيكى وابنها قد جاء من قبل بعض الحساد والحاقدين على سرقويتى بيكى وأبنائها وشقيقتها الصغرى وابن شقيقتها نظراً للمكانة الفريدة التى كانت تحتلها فى الدولة المغولية والاحترام الكبير الذى كان يظهره القاآن أوكتاى دائماً لها لدرجة أنه سمح لها بتعيين ولاه أقاليم الامبراطورية المغولية ، وكان يستشيرها فى العديد من أمور الدولة [٤] . كما أنه لا يعقل أن تجرؤ شقيقه سرقويتى بيكى وابنها على اغتيال القاآن لأن ذلك يعنى ضياع مكانه ونفوذ أختها سرقويتى بيكى من ناحية ، ثم ضياع مكانه ونفوذ أبيقه بيكى نفسها فى بلاد الخطا ومكانتها لدى القاآن المغولى من ناحية ثانية ، ثم ينتهى الأمر بعد ذلك باعدامهم جميعاً طبقاً لقوانين الياسا المغولية من ناحية ثالثة .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٦٣ .

(٣) برتولد : تركستان ، ص٦٧١ . ويذكر أنه بعد قليل من موت أوكتاى لحقت به أحب زوجاته إليه رغماً من أنه لم يرزق منها بأطفال .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٤٩ ، ٥٤ .

على أن الدور السياسى الحقيقى لسرقويتى بيكى إحدى عاقلات العالم، على حد قول مؤرخ المغول (١) ، إنما يتضح عند توليه ابنها منكو(٢) عرش القاآنية (٦٤٨ - ٦٥٥هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧م) . فبعد وفاة كيوك قاآن أن عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م ، كثر الطامعون فى العرش المغولى أكثر مما كان فى عهد أوكتاى لتعود أحوال المغول إلى الاضطراب ثانية ، وحدث نزاع على من يخلف الخان الراحل ولتحاط مسألة وراثة العرش للمرة الثانية بعديد من المشاكل والصعوبات ، إذ لم يكن من بين آل چنكيزخان من تلتف حوله القلوب ، ليظل عرش القاآنية خالياً ما يزيد عن عاماً ونصف قامت فيها أرملة كيوك (٣) بمباشرة مهام الحكم إلى أن ينتخب الخان الجديد يعاونها فى ذلك الوزير النصرانى چينقاى (٤) .

وقد حفلت المصادر المغولية التى لدينا بتفاصيل كثيرة حول الظروف التى أحاطت بانتخاب منكو قاآناً جديداً على العرش المغولى وحول المؤامرات التى حيكت للحيلولة دون اختياره قاآناً بل والتآمر على حياته

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٧ .

(٢) إختلفت المصادر إختلافاً كبيراً حول رسم إسم هذا القاآن فهو يكتب فى بعض المصادر منكو ومونكا ، وفى بعضها الآخر : مونككا ومانجو . على أن غالبية مصادر المغول تكتبه تحت إسم منكو وهو الرسم الذى سرنا عليه فى هذه الدراسة . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٨ ، ٢٠٠ - ٢٠١ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤١ ؛ إبن العبرى: تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ١٩٥٨ ، ص٢٦١ ؛ أيضاً د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٣٨ ، وإختلفت المراجع الحديثة فى رسم إسم منكو فيكتب أحياناً مونكو . برتولد : تركستان ، ص٦٨٣ ، وأحياناً يكتب مونكو . شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٢ . دون أن يذكر المصدر الذى إعتمد عليه .

(٣) سوف نتحدث عن دور أرملة كيوك خان فى موضعه المناسب من هذه الدراسة .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨١ .

من قبل المعارضين له ولوالدته سرقويتى بيكى [١] ، والصراع المرير الذى دار فى الخفاء لكى يظل عرش القاآنية فى ذرية أوكتاى بدلاً أن ينتقل إلى أولاد تولوى الذين يمثلون الفرع الثانى فى أسرة چنكيزخان . ولما لم يكن من شأننا الاستفاضة فى ذكر كل هذه الأحداث خاصة وأن المقام يضيق بذلك ، فإننا نذكر وطبقًا لما ذكره الجوينى ورشيد الدين ، فى ظل هذه الأزمة الدستورية حول العرش القاآنى ، وجد المنتخبون من آل چنكيزخان أن لهم الحق فى تخطى حق ذرية أوكتاى فى العرش المغولى، وأعترفوا بحق ذرية الابن الأكبر ، أى نسل جوجى . وبما أن باتوكان معترفًا به أنه رأس آل جوجى (رغمًا عن أن أخاه الأكبر أوردا كان لا يزال على قيد الحياة) [٢] ، والذى كان يأمل فى أن يصبح الخان الأعظم. وبذلك فإن أمراء البيت المالك اعترفوا بأهمية باتو فى انتخاب القاآن الجديد بوصفه أكبر أفراد آل چنكيزخان سناً [٣] . وكان باتو شيخاً معظمًا ، وعميداً لأسرة جوجى وبهذا أضحى لباتو الزعامة على بيت

---

(١) للإستزادة راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ – ١٧٣ ، ١٩٧ – ٢٠٣ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص ٢٤٠ – ٢٤١ ؛ إبن العبرى : تاريخ مختصر الدول ط. صالحانى بيروت ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠م ، ص٤٥٨ ؛ وصاف الحضرة : تاريخ وصاف ، بمباى ١٢٦٩ هـ ، ص ٥٧٦ – ٥٧٨ .

(٢) راجع شجرة نسب آل چنكيزخان بخانات الأوردو الذهبى .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٨ – ١٩٩ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٠ –٢٤١. يلاحظ أن رواية الجوينى تثير الدهشة والحيرة فى آن واحد عندما ذكر أن باتوروهو يبدأ مفاوضاته لإنتخاب القاآن الجديد ، واقرار الأمور حول العرش المغولى بعد وفاة كيوك ، فإنه أرسل إلى أرملة كيوك يطلب منها مباشرة مهام الحكم بمعاونة بعض رجال البلاط حتى إنتخاب الخان الجديد ، وفى نفس الوقت طلب من أمراء ونبلاء أسرة چنكيزخان بالحضور وتفويض سرقويتى بيكى بالإشراف على الخانية فى فترة خلوها من الحاكم الجديد . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٠ .

چنكيزخان ليجعل نصب عينيه استبعاد أسرة أوكيتاى من ولاية العرش [1] . ويبدو أن باتو قد تردد فى قبول انتخابه قاآناً ربما بسبب سنه ومرضه ، وقدم للانتخاب أحد أبناء تولوى الابن الأصغر لچنكيزخان ، الذى ظل حتى هذه اللحظة قابعاً فى الظل . وهكذا وقع اختيار باتو على منكو ، وكان فى الثلاثة والأربعين من عمره وكان نشيطاً شجاعاً ، مؤيداً لباتو على الدوام ، واشترك فى حملاته على روسيا [2] . وعمل منكو بوصية أمه سرقويتى بيكى فأظهر نحو باتو احتراماً كبيراً أكثر مما فعل بقية الأمراء ، وطلبت منه عيادته فى مرضه فى وقت أنفض من حوله بقية أفراد الأسرة المالكة [3] . ويؤكد مؤرخ المغول على ذلك عندما ذكر أن سيورقوقتيتى بيكى قالت لابنها منكو قاآن « مادام الآخرون لن يذهبوا إلى باتو ، وهو سيد الجميع ومريض ، فبادر أنت بالذهاب إليه بحجة عيادته [4] ». فذهب منكو إلى هناك وفقًا لنصيحة والدته ، فبايعه باتو

---

(١) هذا وقد شغل باتو مركزاً غير عادياً داخل إمبراطورية چنكيزخان بوصفه أكبر أبناء آل چنكيزخان سناً ، وهو صاحب أوسع أقطار الإمبراطورية وأكثرها بعداً عن عاصمة المغول، وبوصفه أخيراً المسئول الأول عن تمكين منكو من العرش . برتولد : تركستان ، ص٦٨٤ . معتمداً على رواية وليم روبروك ويؤكد مؤرخ المغول على ذلك عندما ذكر «أن باتوكان معظماً وعميداً لكافة الأمراء ، ويرجع إليه فى تعيين الملوك وتنصيبهم » . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٩ . راجع الأسس التى ذكرها باتو الخاصة بمنكو والتى على أساسها رشح منكو قاآن لمنصب الخانية كما ذكرها رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٩ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ . وقد ذكر رشيد الدين عبارة مشابهة لذلك فى موضع آخر فى كتابه وإن إختلفت فى بعض الألفاظ . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٩ .

جزاءاً وفاقاً لذلك ، وأجلسه على عرش القآنية [1] . ذلك أن منكو قد أبصر بعينى رأسه وسمع بأذنيه ياسا وبارليغ چنكيزخان [2] ، زد على ذلك أنه ابن تولوى وارثًا لورث چنكيزخان وأقرب أولاده إليه فى حياته [3] .

وقبل أن نشرع فى استعراض الدور الحيوى الذى قامت به سرقويتى بيكى فى تمهيد الأجواء لدعم انتخاب ابنها منكو قآن بالاتفاق والتعاون مع باتو ، نود أن نشير إلى نقطة هامة توضح أن باتو وسرقويتى بيكى ، التى أدعت مصادر المغول تمسكها بقوانين الياسا وتعاليم چنكيزخان ، بل وتشير المصادر إلى مدى تفقه سرقويتى بيكى بصفة خاصة وتعمقها فى الياسا بل وتمسكها بها دون غيرها من بقية أفراد الأسرة المالكة[4] ، قد ضربت بهذه القوانين هى وباتو ، عرض الحائط عندما بذلا جهوداً مضنية لانتخاب منكو قآن ووضعه على العرش ، ويؤكد مدى قوة نفوذ تلك المرأة المغولية وسيطرتها على مقدرات الأمور فى الامبراطورية المغولية ، فمن المستبعد أن يكون باتو قد استند فى اختياره لمنكو كما يقول الجوينى ورشيد الدين على العرف المغولى الذى يقضى بأن يرث أصغر الأولاد مقر الأب ، وكانت هذه القاعدة تختص بالميراث ، أى ما

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٨ - ١٩٩ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤١ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٤) يقول مؤرخ المغول ، ظلت سيورقوقتيلى بيكى وأبناءها مستمرين فى السير بمقتضى الياساق (الياسا) ولم يتجاوزوا قيد شعره العادات والتقاليد . رشيد الدين : جامع التواريخ، ص١٧٨ .

يخلفه الميت من متاع وممتلكات شخصية (١) ، ولم يكن المراد بها إرث الوضع السياسى . وحتى إذا كان المراد بذلك هو ارث الوضع السياسى أى الحق فى وراثة عرش القاآنية ، فإن هذا الحق لم يكن ليؤول إلى منكو بل إلى أخيه الأصغر أريق بوقا .

ولقد آثار قرار باتو (٢) بانتخاب منكو سخطاً شديداً بين آل أوكتاى ، وانضم إليهم فى هذا رأس ألوس جغتاى ييسومونككا وغالبية الأمراء من بيت جغتاى فيما عدا قراهولاكو لما لحق به من أذى على أيدى كيوك ، كما انضم إليه البعض من آل أوكتاى مثل ابن أوكتاى المدعو قداق أوغل وأولادكوتيان (٣) . وتأزمت الأمور بحيث بدا وكأن البلاد على شفا حرب أهلية طاحنة خاصة عندما قام اثنين من الأمراء المعارضين لانتخاب أو ترشيح منكو وهما خواجه وناقو بتدبير مؤامرة للتخلص من منكوقاآن وللتأثير على اختيار الناخبين ، ولكن هذه المؤامرة أخمدت فى مهدها (٤) . واستمرت هذه الأزمة الدستورية ما يقرب من عامين بذلت خلالها سرقويتى بيكى جهوداً مضنية لتأمين ارتقاء منكو عرش الخانية ، ووضع نهاية لأية معارضة من قبل أفراد الأسرة المالكة ، وقررت التحرك بسرعة لوضع نهاية لكل هذه الأمور لأنها خشيت أن يؤدى اطالة الوقت وازدياد المعارضين لابنها فى توليه العرش المغولى إلى حرمانه منه تماماً،

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٩ .

(٢) يثنى الجوزجانى على روح التسامح الدينى الذى كان لدى باتو وحمايته للمسلمين ، وكان فى ممتلكاته مساجد وأئمة ومؤذنون ، بل أن البعض يظن أنه اعتنق الإسلام . الجوزجانى : طبقات ناصرى ، نشر نساو – ليس ، ص٤٠٦ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ ، ٢٠١ – ٢٠٢ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤١ ، أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨٢ . معتمداً على نص رشيد الدين .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤١ – ٢٤٢ .

باعتبارها ابنه أخى آخر ملوك قبيلة الكرايت وأعظم أميرة مغولية لما لها من كفاءة ممتازة ، وحزم نادر وعقل راجح ، وتبصر بعواقب الأمور (١) ، عملت على استمالة أغلبية الأمراء والجنود المغول لانتخاب ابنها منكو(٢)، فكانت تودهم وتصادقهم ، وحرصت على استمالة العشائر والأقارب بتقديم التحف والهدايا (٣) . وببذلها جودها استمالت العساكر والأجانب ، وجعلتهم مطيعين لها ومؤيدين (٤) ، بحيث أن أكثر الناس بعد وفاة كيوك خان اتفقت كلمتهم على تفويض الخانية إلى ابنها الأكبر منكوقاآن (٥) . وعبر عن ذلك رشيد الدين فى موضع آخر من كتابه بقوله ، وأخذ سيورقوقتيتى بيكى تستميل الأقارب والعشائر باللطف والحفاوة ، وتدعوهم لحضور القوريلتاى (٦) . وحتى المعارضين لانتخاب منكو وهم أبناء أسرة أوكتاى وعلى رأسهم ييسومونككاوبورى ، وأبناء جغتاى ، كانت ترسل إليهم بطريق الموادعة والمراعاة والموالاة ، ولما لم تجد النصائح والمواعظ بعثوا إليهم بالرسائل على سبيل الوعد والوعيد واقامة الحجة عليهم لعلهم ينزجرون بالرفق والمداراة (٧) .

وبفضل جهود سرقويتى بيكى ودبلوماسيتها ورجاحة عقلها تمكنت

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٩٧ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ ، ١٩٢ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٤٥٨ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٧ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٧ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٩٨ .

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠١ .

(٧) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠١ .

من اقناع غالبية الأفراد بحضور القوريلتاى فى قراقورم عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م والذى فيه تم انتخاب منكو وأعلن رسميًا اعتلاءه عرش القاآنية (١) . ويذكر أحد المؤرخين المحدثين الاجلاء أن اعتلاء منكو عرش القاآنية يعتبر انقلاباً عسكرياً أطيح به أمراء أسرة أوكتاى وجغتاى من تولى العرش (٢) . وبهذا انتقل الحكم من بيت أوكتاى إلى أبناء تولوى الذين يمثلون الفرع الثانى من أسرة جنكيزخان .

ويذكر أحد المؤرخين المحدثين الكبار أن منكوقاآن قد تولى عرش الخانية منفذاً شرط باتو باقتسام السلطة معه ، وأن باتو ، طبقًا لذلك ، أضحى مستقلاً بإدارة الأقاليم الواقعة غرب بحيرة بالكاش ، وأنه بعد وفاة باتو عام ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م انفرد منكو بالحكم فى الامبراطورية المغولية (٣) . والواقع أنه من الصعب تقبل مثل هذا الرأى من قبل أستاذنا الدكتور الباز العرينى خاصة وأنه لم يذكر لنا المصدر الذى استقى منه مثل هذا الرأى ، كما أن المصادر المغولية التى لدينا لم تشر على الاطلاق إلى مثل هذه الرواية ، أو أن هناك اتفاقاً بين باتو ومنكوقاآن على اقتسام السلطة عند اعتلاء منكو عرش القاآنية . وربما يكون هذا الرأى صحيحاً

---

(١) للإستزادة عما دار فى القوريلتاى راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٢ – ٢٠٣ ؛ إبن العبرى . تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ١٩٥٨ ، ص٢٦١ . ويسمى إبن العبرى منكو بإسم مونككا . ويلاحظ أنه جعل تاريخ القوريلتاى الذى إنتخب منكو فى ٩ ربيع الآخر عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م . ويعارض بذلك ما جاء فى تواريخ مصادر المغول التى أجمعت على أن عقد هذا القوريلتاى وإنتخاب منكو فى ذى الحجة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م. مثلاً رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٣ ويلاحظ أن برتولد يؤيد رواية إبن العبرى حول هذا التاريخ على الرغم من أنه لم يشير إلى ذلك فى حواشيه . برتولد: تركستان ، ص٦٨٢ .

(٢) د. العرينى: المغول ، ص١٩٧ ج١ معتمداً على رأى جروسيه Grousset .

(٣) د. العرينى : المغول ، ص١٩٨ . معتمداً على مصدر أو مرجع لم يذكره .

لأنه يشير بذلك ضمنياً لوجود اتفاق سرى بين باتو ومنكوقاآن وكانت سرقويتى بيكى على علم بهذا الاتفاق على أساس أن باتو الذى كان لديه طموح كبير بأن يصبح الخان الأعظم ، ورأى أن مرضه وسنه قد يحولا دون ذلك ، وافق على تقديم العون السياسى لمنكو ومؤازرته فى ترشيحه قاآناً مقابل موافقة منكو وسرقويتى بيكى على اقتسام السلطة فيما بين الاثنين وذلك بمنحه إدارة الأقاليم الواقعة غرب بحيرة بالكاش وأن يحكمها مستقلاً عن القاآن منكو . وإذا كان هذا الاحتمال صحيحاً فإن ذلك يؤيد الرأى الذى ساقه المؤرخ الكبير الدكتور العرينى . ويؤيد هذا الرأى أيضاً ما ذكره المؤرخ الروسى بارتولد ، معتمداً على رواية وليم روبروك الفرنسيسكانى ، أنه بتوليه منكو السلطة الأوتوقراطية التى أنفرد بها جنكيزخان من قبل ، ثم السيادة الجماعية لأفراد البيت المالك التى أعقبت موته ، فإن ذلك يمثل ضرباً من السلطة المزدوجة فى امبراطورية المغول تحت حكم منكو أى بينه وبين باتو . وقال منكو نفسه لروبروك : « كما أن الشمس تنشر شعاعها على كل مكان كذلك يمتد سلطانى وسلطان باتو على جميع الأطراف » (١) .

وبذلك أكدت سرقويتى بموقفها هذا أنها تستحق أن يطلق عليها لقب « صانعة الملوك والقاآنات » . وقبل أن نختتم هذه الجزئية عن دور سرقويتى بيكى (٢) نود أن نشير إلى أنه بعد أن جلس منكوقاآن على سرير الخانية أعقبه عقد محكمة كبرى لمحاكمة الأمراء المتهمين بالتآمر

---

(١) برتولد : تركستان ، ص٦٨٤ . معتمداً على رواية روبرك.

(٢) من المهم للغاية أن نشير إلى أن دور سرقويتى بيكى لم ينتهى عند هذا الحد بل أننا سنتعرض لدور آخر لها فى الجزئية الخاصة بالدور الحضارى للمرأة المغولية فى المجتمع المغولى وهو من الأهمية بمكان .

على حياة منكو ومنهم بعض أفراد أسرة أوكتاى (١) . وقد حاكم القآن بنفسه أمراء البيت الحاكم ، وترك محاكمة الأمراء والنبلاء وبعض قادة رؤساء الفرق العسكرية إلى القاضى الأكبر أو اليرغوجى منكاسار نويان (٢) . وانتهت المحاكمة بانتحار مربى أوأتابك شيرامون وباعدام سبعة وسبعين أميراً (٣) ، وتم العفو عن شيرامون وبقية أمراء الأسرة المالكة (٤) ، غير أن هذا لم يمنع منكو بعد عدة أعوام من أن يأمر باغراق شيرامون فى الماء (٥) .

توراكيناخاتون : المرأة الحديدية
(٦٣٩ - ٦٤٤هـ /١٢٤١-١٢٤٥م) :

ولدينا نموذج آخر لامرأة كانت أكثر دهاءاً من سرقويتى بيكى وكانت معاصرة لها ، استخدمت كل الأساليب لتأكيد مدى نفوذها وتأثيرها فى المجال السياسى فى العصر المغولى ، واجهت العديد من المشاكل والعقبات بعد وفاة زوجها حول انتخاب قآن جديد ووضعه على العرش المغولى . ومن أجل رفع ابنها على العرش لم تتورع أن تتبع أساليب تتسم بالحيلة والدهاء مرة ، والقسوة وسفك الدماء مرة أخرى على النحو

(١) للإستزادة من تلك المؤامرة وإكتشافها قبل تنفيذها راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٥ – ٢١١ . وتذكر الرواية أن الذى إكتشف هذه المؤامرة سائس يسمى كشك القوشجى من قبيلة القنقلى .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٠ ؛ أيضاً D'ohsson, Histoire des Mongols, To II, p. 269.

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٣ – ٢١٤ .

(٥) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٨ . أما الباقى فقد تعرض للإنتقام الشديد بالقتل والتشريد والنفى والحبس . راجع Grousset, R., L'Empire des Steppes Paris 1948, pp. 340 - 341 .

الذى اعترفت به وأكدته مصادر المغول والتى تصفها أيضاً بالتسلط الشديد سواء فى حياة القاآن أوكتاي أو حتى بعد وفاته (1) بحيث يمكن أن ينطبق على أعمالها مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وهى توراكيناخاتون (2) زوجة أوكتاى بن چنكيزخان (3) ، وهى المرأة المغولية الوحيدة فى التاريخ المغولى التى تولت الوصاية مرتين على العرش المغولى عند موت الخان الأعظم على النحو الذى أوضحته غالبية مصادر المغول (4) .

إن الدور الخطير الذى مارسته تلك المرأة القاسية القلب والذى يبين مدى سطوتها تبدأ بعهد زوجها أوكتاى قاآن عندما كانت تتدخل فى تعيين ولاه الأقاليم التى تتكون منها الامبراطورية المغولية ، ويتمثل ذلك فى تعيينها أرغون أغا الأويراتى لادارة خراسان والعراق العجمى (5) نظراً

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ سطر ١٥ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٨ . وإختلفت المصادر فى رسم رسمها فهى توراكينا فى الجوينى :جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢، وهى أيضاً توراكنة خاتون . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٨ . ويأخذ برتولد بهذا الرسم من تغيير طفيف فيكتبها توراكينة . برتولد : تركستان ، ٦٧١ ، ويأخذ بعض المؤرخين المحدثين بهذا الرسم مثل د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٢٥؛ د. العرينى : المغول ، ص١١٢ ؛ أيضاً شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٠ .

(٣) يلاحظ أننا حاولنا قدر الإمكان الإلتزام بالتسلسل الزمنى فيما يتعلق بنساء المغول فى المجال السياسى ، إلا أن طبيعة الدراسة أحياناً جعلتنا لا نلتزم بالتسلسل الزمنى ، لأن الدراسة قائمة على أساس تتبع عمل كل أمرأة مغولية حسب أهميتها وعمق الدور الذى قامت به فى العصر المغولى .

(٤) راجع مثلاً الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ، ٢٤٠ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ، ص١٧٦ .

(٥) يفهم من رواية الجوينى أن تعيين أرغون جاء بدلاً من كركوز (جرجس) الأويغورى (١٢٣٥ – ١٢٤٢م) ، وكان بوذى الديانة رغم إسمه المسيحى ، وكان موطنه –

لدرايته الكاملة بالكتابة وعلى هذا الأساس أيضاً تولى رئاسة الديوان زمن أوكتاى (١) منذ عام ٦٤١ هـ / ١٢٤٣م . ولدينا رواية تشير بوضوح إلى أن سطوة ونفوذ توراكيناخاتون أثناء حياة القاآن أوكتاى جلب لها الكثير من الخصوم والحساد والكثير من المعارضين لسياستها (٢) ، وهى التى ستجعلهم يدفعون ثمن هذه المعارضة وهذا الحقد فيما بعد على النحو الذى سنوضحه فى حينه (٣) .

وعندما توفى أوكتاى عام ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ – ١٢٤٢م لم يكن من بين آل چنكيزخان من تلتف حوله القلوب ولذلك لم يكن هناك ترتيبات لوراثة العرش ، وأحيطت مسألة وراثة العرش المغولى ببعض الصعوبات وثارت العديد من المشاكل حول من يخلف أوكتاى . ولدينا رواية تشير بطريقة غير مباشرة إلى وجود نوع من الصراع الخفى بين زوجة القاآن الراحل المسماة موكاخاتون وأكبر زوجاته توراكيناخاتون حول الوصاية

– الأصلى من ضواحى بيشبالق ، وكان أحد المقربين لچنكيزخان وكان حاكماً لفارس . وتذكر رواية الجوينى أن الذى غدر به وأوشى به إلى توراكينا خاتون هو أرغون أغا فيما بعد حيث سيق إلى توركينا خاتون الذى حاكمته لحقد قديم بينهما وعينت الأمير أرغون على خراسان . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٤ .

(١) د. العرينى : المغول ، ص٢٠٩ . يعتمد على مصدر لم يذكره . يلاحظ أن چنكيزخان أول من أدخل الخط الأويغورى وإستعمله لكتابة قوانين الياسا على يد حاكم فارسى المدعو كورجز . (جرجس) الأويغورى البوذى الديانة ، وعهد إليه چنكيزخان أيضاً تعليم الخط الأويغورى لأطفال بيته . د. العرينى : المغول ، ص٢٠٨ – ٢٠٩ . معتمداً على مصدر لم يذكره .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ سطر ٢١ ، للإستزادة عن ذلك راجع برتولد : تركستان ، ص٦٧٣ .

(٣) أكد هذا الأمر الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ .

على العرش أو من سوف يسير الأمور حتى يعقد مجلس القوريلتاى لانتخاب الخان الجديد (١) . وأن حزب من النبلاء وطبقة العامة كانوا يميليون إلى توليه موكاخاتون الوصاية على عرش القاآنية . على أن توراكيناخاتون التى كانت أكثر دهاءاً وقوة من موكاخاتون ، استطاعت أن تقصيها من مزاحمتها فى الوصاية على العرش خاصة وأن موكاخاتون لم تلد للقاآن الراحل أية أبناء (٢) . ويذكر المؤرخ الروسى بارتولد أن موكاخاتون كانت أحب زوجات أوكتاى إليه (٣) . وتمكنت توراكينا من استمالة كبار رجال الدولة والأسرة الحاكمة إلى جانبها بحيث وافق أمراء البيت المالك وعلى رأسهم جغتاى أن تتولى تصريف شئون الامبراطورية كوصية على العرش باعتبارها أم أولاد الخاقان الراحل وأنها أكثر زوجاته حقًا بتلك الوصاية وذلك لحين اجتماع القوريلتاى وانتخاب القاآن الجديد (٤) . وأكد حقها فى الوصاية والانفراد بها دون منافس الوفاة المفاجئة لموكا خاتون بعد وقت قصير من وفاة أوكتاى (٥) .

وهكذا تمكنت هذه المرأة المتسلطة المتعجرفة أن تحكم قبضتها على الامبراطورية بيد من حديد لكى تصبح خلال السنوات الأربع (٦٣٩ – ٦٤٤ هـ / ١٢٤١ – ١٢٤٥م) التى خلا فيها عرش القاآنية من اعتلاء خان جديد أن تصبح فيها الحاكم المطلق على حد تعبير مؤرخ

---

(١) هى رواية الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ، وهو المؤرخ الوحيد الذى إنفرد بذكر هذه الرواية بالتلميح دون التصريح .

(٢) برتولد : تركستان ، ص٦٧١ ، ودون أن يذكر المصدر الذى إعتمد عليه .

(٣) برتولد : تركستان ، ص٦٧١ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ .

المغول (١) . ويذكر المؤرخ شبولر أن تفويض كبار رجال الدولة وأعيانها لتوراكيناخاتون كوصية على العرش يعتبر دلالة أخرى على المركز الفريد الذى كانت تشغله المرأة فى المجتمع المغولى (٢) . ونحن نتفق معه فى هذا الرأى . ويذكر أحد المؤرخين المحدثين الأجلاء أن توراكيناخاتون بما لها من عقل وتدبير وشخصية قوية أن تسوس الدولة أحسن سياسة وتسيطر عليها بقوة (٣) . على أن هذا الرأى يتناقض مع رواية مؤرخ المغول رشيد الدين عندما ذكر فى نص له أنه فى الفترة التى باشرت فيها توراكيناخاتون مهام الحكم وجدت الاضطرابات سبيلها إلى أطراف الممالك المغولية وأوساطها (٤) ، كما يذكر فى موضع آخر أن هذه الفترة كانت مليئة بالفتن والاضطرابات (٥) .

وكيفما كان الأمر فقد اختلف المغول على من يخلف أوكتاى حول عرش المغول . وكان قد شاع قول مؤداه أن چنكيزخان قد أوصى بأن يؤول العرش بعد موت أوكتاى إلى ابنه الثانى كوتان (٦) ، غير أن كوتان هذا كان مصاباً بعلة لم يكن يرجى له منها الشفاء . ولهذا جعل أوكتاى ولاية العهد لابنه الثالث كوجو ، ولكنه توفى قبل والده حيث لقى مصرعه سنة ١٢٣٦م فى القتال ضد أسرة سونج بالصين ، فجعل أوكتاى الملك لحفيده شيرامون بن كوجو وكان لا يزال حدثاً صغير

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ .

(٢) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٠ .

(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٢٥ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٢ سطر ٤- ٦ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٨ سطر ٥ .

(٦) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٣ . ويلاحظ إننا إضطررنا هنا لتكرار هذا الحادث حول قاآنية كيوك لأن طبيعة البحث تطلبت ذلك .

السن (١) . وقوبل تعيينه بالمعارضة الشديدة من قبل توراكيناخاتون وأنصارها (٢) . أما كيوك الأبن الأكبر لأوكتاى ، فقد كان مشغولاً مع قادة المغول بفتح روسيا وبولندا عندما أرسل إليه أبوه يستدعيه إلى العاصمة قراقورم حين اشتد عليه المرض ، ولكن الأب لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يرى ابنه .

ويفهم من روايات مصادر المغول التى جرى تدوينها فى ذلك الوقت انقسام الأسرة الحاكمة المغولية إلى حزبين رئيسيين : حزب يؤيد توراكيناخاتون فى رفع ابنها كيوك على عرش الخانية ، وحزب آخر قوى معارض من بين الارستقراطية المغولية يعترض على تولى كيوك العرش، بل وعلى جميع أبناء أوكتاى ، وكان رأى هذا الحزب أن يؤول العرش إلى تولوى بطل آل چنكيزخان وإلى أولاده من بعده ، وكان أكبرهم منكو الذى يصغر كيوك بعامين ، ويبدو أنه كان يرأس هذا الحزب آلتالون أصغر بنات چنكيزخان وزوجها جاوردساجان (٣) . ويبدو أنه كان هناك حزب آخر معارض يمثله باتو الذى عمل على مقاومة توراكيناخاتون لأنه كان يطمع بالوصول إلى العرش كونه من أبناء أكبر أبناء چنكيزجان (٤) ، وربما أيضًا أنه كان لا يرضى القبول بزعامة كيوك لأسباب دينية وثقافية يضيق المقام بالتعرض لها (٥) .

ولكن توراكيناخاتون ، تلك المرأة القوية ، لم تأبه لهذه الادعاءات

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٠ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٢ ، ١٨١ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٢٣ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ ، ١٨٠ .

(٥) للإستزادة راجع شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٠ – ٤١ .

وعقدت العزم على أن يحتل ابنها كيوك هذا المنصب دون غيره من الشخصيات المغولية ، وناضلت بكل قواها لتؤمن لكيوك استرداد ميراثه من أبيه ، ومن أجل بلوغ هذه الغاية اتخذت العديد من الاجراءات وكافة الوسائل المتاحة لتنفيذ ذلك بالترغيب والترهيب ، فعملت على استمالة قلوب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا حتى مال الجميع إليها ، وأصبحوا رهن اشارتها [١] ، واستطاعت بما لديها من حيلة ودهاء أن تجعل كبار أمراء ونبلاء الأسرة الحاكمة ينقادون إلى أوامرها طوعًا ورغبة، فأنضووا تحت رايتها ، وأصطف إلى صفها كل الرجال ، واتبعها جينقاى وغيره من رجال البلاط ، وكذا ولاه الأطراف والأقطار على حد تعبير الجوينى [٢] . وبذلك جمعت كل السلطات فى يدها وصارت تحكم وتحرك الخيوط وفقاً لهواها وحتى دون استشارة أفراد الأسرة الحاكمة [٣] ، لدرجة أن مؤرخ المغول أطلق عليها اسم الحاكم المطلق [٤] ، بل أن ابنها كوتان شبهها فى تسلطها وقوتها بمخالب الباز القوية [٥] . ويذكر المؤرخ الروسى برتولد ، استناداً على نص لرشيد الدين ، أن توراكيناخاتون أرملة أوكتاى أنها وإن كانت غير جميلة إلا أنها كانت بطبيعتها تميل إلى التسلط الشديد [٦] .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ . ويلاحظ تشابه روايتى كل من رشيد الدين ، والجوينى .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ ، ١٧٦ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ .

(٥) أجمع كل من الجوينى ورشيد الدين على هذا التشبيه . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٣ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٧ .

(٦) برتولد : تركستان ، ص٦٧٥ . هذا ولم نجد فى كتاب رشيد الدين هذا النص على نحو واضح أو صريح ، بل بالتلميح دون التصريح .

كما بدأت توراكينا تترصد لكبار الخصوم والمعارضين لتوليه ابنها كيوك عرش القاآنية وعملت على الاطاحة بهم والتخلص منهم واحداً بعد الآخر وذلك بعزلهم من مناصبهم وشملت عملية التصفية تلك الكثير من الأمراء وأركان الدولة ومنهم الكثير من مستشارى أوكتاى (١) ، وهم الذين كانوا قد عارضوا سياستها فى إدارة الدولة وفى الوصاية على عرش القاآنية ، وكان منهم چينقاى نفسه الذى كان الوزير الأعظم للقاآن أوكتاى والذى لجأ هو وبعض الأمراء المعزولين طالبين حماية كوتان من بطش أمه (٢) . وكانت أشهر من عصفت به هو كركوز (جرجس) حاكم فارس الأويغورى البوذى الديانة وأقرب المقربين إلى چنكيزخان ، فعزلته عن حكم فارس ثم قامت بحبسه لحقد قديم بينهما وعينت الأمير أرغون مكانه (٣) ، ثم حاكمته بعد ذلك وأمرت باعدامه ، فسيق إلى الأردو الجغتائى ألوغ إيف وهناك حشوا فمه بالحجارة وقتلوه (٤) . كما أنها تمكنت بدهاءها ودبلوماسيتها من أن تضع نهاية تلك المحاولة التى قام بها أوتجكين (٥) شقيق چنكيزخان لانتزاع العرش القآنى بالقوة

---

(١) من أمثال تشنكاى النسطورى الكرايتى ، ويى ليوتشوتساى الصينى ، ومسعود يلواج حاكم تركستان الأقاليم ما وراء النهر . وسوف نتعرض لمصير هؤلاء الأشخاص عند التعرض لدور فاطمة خاتون صاحبة وكاتمة أسرار توراكيناخاتون .

(٢) للإستزادة عن ذلك راجع : رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ – ١٧٧ ؛ الجوينى: جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٤ .

(٤) برتولد : تركستان ، ص٦٧٤ .

(٥) أوتجكين معناها الإبن الذى يختص بالنار ومواقدها ، وكلمة أوت فى الأصل الإصطلاحى عند الأتراك بمعنى النار ، وتيكين بمعنى أمير فيكون المقصود أمير النار أو رئيسها . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦٥ .

العسكرية (١) . والمرجح أيضاً أنها هى التى حرضت أبناءها وأبناء أوكتاى من زوجاته الأخريات على اعدام ابنه چنكيزخان الصغرى وأحب بناته إليه بلا محاكمة ولا تحقيق(٢) ، باعتبارها أحد المعارضين الأقوياء لها ، وضاربه بذلك بقوانين ياسا چنكيزخان عرض الحائط وهى التى تحرم اعدام أى فرد من أفراد البيت المغولى المالك إلا بقرار جماعى .

وبذلك لم تتورع تلك المرأة الحديدية أن تخضب أيديها بدماء أمراء الأسرة الحاكمة وعلى رأسهم ابنه چنكيزخان نفسه من أجل تنفيذ خططها فى تنصيب ابنها كيوك على عرش الخانيه ، وعبر عن ذلك الجوينى فى بيان جزل قائلاً « واستطاعت بعد أن تمكنت أن تذلهم ، وهكذا لم يثبت أمام منازعتها أحد ، منتهزة فرصتها قبل فوات الآوان » (٣) . وبذلك استحقت هذه المرأة أن ينطبق عليها قول الشاعر أبى اسحاق الغزى :

بادر فإن الوقت سيف قاطع والعمر جيش والشباب أمير (٤)

ومما يثير الدهشة أن توراكيناخاتون حرصت على أن يطول أمد وصايتها على العرش ما يقرب من أربع سنوات (٦٣٩ - ٦٤٤ هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٥م) حتى يتم تهيئة الأجواء تماماً وتتخذ الاستعدادات الكافية لانتخاب كيوك ، وعندما تأكدت أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة وكل الخيوط بأيديها أرسلت إلى كبار الشخصيات المغولية فى جميع

---

(١) للإستزادة راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٥ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٣ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٣ حاشية (١) .

الأطراف والأمصار لحضور القوريلتاى الذى سوف ينصب فيه كيوك رسمياً خاناً أعظم ، كما وجهت هذه الدعوة أيضاً إلى السلاطين والأمراء والعظماء فى تلك النواحى (١) .

عقد القوريلتاى فى منغوليا عن منابع نهر أرخون فى صيف عام ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦م وحضره جميع الحكام فى الامبراطورية المغولية فضلاً عن عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك الخاضعين للنفوذ المغول . ولقد أحيط هذا القوريلتاى باحتفالات مهيبة بأكثر مما كان عليه الحال مع قوريلتاى أوكتاى ، وأنزل الضيوف فى ألفى خيمة بيضاء (٢) ، ولم يحدث أن شوهد مثل هذا الجمع الحافل من قبل . ويعبر الجوينى عن ذلك قائلاً ، ووصل الملوك والأمراء بخيلهم ورجلهم ، ودهشت أعين البشر من تنظيمهم وتناسق صفوفهم ، (٣) . ومن الذين حضروا الاجتماع من ممثلى الدول الأجنبية المطالبان بعرش مملكة الكرج داود نارين ، وداوود لاجا (٤) ، وياروسلاف دوق روسيا ، وحضر من المسيحيين اثنان من الكهنة هما كنداسطبل سمباد شقيق هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى ، والآخر يوحنا كاربينى من قبل البابا أنوسنت الرابع (٥) . وقد دوّن كل منهما كتابًا وصف فيه رحلته إلى

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٨ ، ١٨٠ . أورد الجوينى رواية مشابهة تماماً لرواية رشيد الدين حول ذلك . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٤ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨١ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٠ .

(٤) ويذكر رشيد الدين أنه من جورجيا (كرجستان) إثنان يحملان إسم داوود . رشيد الدين: جامع ، ص١٨١ .

(٥) أشارت مصادر المغول إلى هؤلاء السفراء الأجانب بالتلميح دون التصريح عندما أشار إليهم كل من الجوينى ، رشيد الدين تحت إسم ورسل من الفرنجة . الجوينى : =

منغوليا (١) . ويعد كلا الكتابين مصدراً هاماً يمدنا بكثير من المعلومات عن الحقائق التاريخية والجغرافية لممالك المغول وقتذاك (٢) . كما حضر أيضاً هذا الاجتماع قلج أرسلان الرابع سلطان سلاجقة الروم ، ومندوبون عن أتابكه كرمان وفارس والموصل ، وسفارة من قبل الخليفة العباسى برأسه قاضى القضاة فخر الدين ، كما أرسل علاء الدين زعيم اسماعيلية آلموت رسله أيضاً لحضور هذا الاجتماع وهما شهاب الدين وشمس الدين . وربما كان حضور الاسماعيلية هذا القوريلتاى بدافع من الخوف والفزع وتفادياً لنقمة المغول وتجنبًا لشرهم على حد رأى أحد المؤرخين المحدثين الأجلاء (٣) . وقدم هؤلاء جميعاً إلى منغوليا محملين بالأحمال الكثيرة والهدايا الفاخرة المناسبة لمقام الخان المغولى (٤) . ويذكر المؤرخ الألمانى شبولر أن حضور هؤلاء السفراء والأجانب ممثلين عن البابا

- جهانكشاى ، ج١ ص٢٣١ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨١ .

(١) Cairpini, History of the Mongals, pp. 27 - 29 .

(٢) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص٢٢ ، ٢٣ . ويذكر براون أن هذين الكاهنين المسيحيين إستقبلا خير إستقبال ونجحا فى التأثير على وزيرين من وزراء كيوك فأعتنقا المسيحية ، واستطاعا بما لهما من مكانة لدى مولاها . التأثير عليه بحيث أنه أخذ يعطف على المسيحية ومعتنقيها . براون : المرجع السابق ، ص٥٧٤ . وللإستزادة راجع د.العرينى : المغول ، ص١٩٣ - ١٩٤ . وسوف نتعرض لهذه الأمور بالتفصيل فى حينها.

(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٢٦ . ورغم ذلك فإن كيوك صب جام غضبه على ممثلى الإسماعيلية وصرفهم أذلاء مهانين . إبن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٤٥٠ . ويذكر الجوينى رواية مشابهة لرواية إبن العبرى . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ سطر ١ . ويذكر رشيد الدين أن كيوك أمر بأن يكتب رد الرسالة التى كان قد أحضرها إليه رسولاً الإسماعيلية بكل خشونة وغلظة . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٤ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨١ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣١ .

وملوك أوربا بالاضافة إلى ممثلين عن سلاطين وأمراء مسلمين يمثل فى نظر المغول دليلاً قوياً على تفوق الأمة المغولية سياسياً وحضارياً (١) .

وهكذا تم فى هذه الجلسة التاريخية انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول باجماع أنصار ومؤيدين توراكيناخاتون وبناء على طلبها شخصياً (٢) ، وبناء على تأثير وتوجيهات تلك المرأة الحديدية (٣) والدة الخان الجديد ، فإن كيوك لم يقبل الحكم إلا بشرط أن يبقى الحكم وراثيًا فى ذريته ، فوافقوا على ذلك ، وتلقى منهم عين الولاء والخضوع وأجلسوه على العرش سنة (٦٤٣ - ٦٤٤ هـ / ١٢٤٥ - ١٢٤٦م) (٤) .

وكان كيوك خان على خلاف أبيه رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح ، فهو من هذه الناحية أقرب إلى الشبه من جده چنكيزخان . إلا أنه كان مثل والدته توراكيناخاتون ورث منها البطش والسيطرة والتسلط (٥) . فلم يكد يستقر فى دست الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء جميعاً إلى ضرورة مراعاة أحكام الياسا ، وتجنب الخروج عليها أو تحريفها أو تأويلها ، كما كلفهم بتجييش الجيوش لفتح الصين الجنوبية وبقية الممالك الاسلامية (٦) .

---

(١) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤١ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٢ ؛ الجوينى : جهانكشاى ج١ ص٢٣١ -٢٣٢ .

(٣) يؤكد الدور الخطير لهذه المرأة أن الجوينى خصص لها فصلاً مستقلاً لها تحت إسم «ذكر توراكينا خاتون» الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ - ٢٣١ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٢ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٣٢ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٢ .

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٣ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٢ ، ٢٣٦ .

وبتأثير من والدته توراكيناخاتون ، التى كانت فى الحقيقة هى الحاكم الفعلى ومن وراء ستار للامبراطورية المغولية وعلى النحو الذى أكده لنا الجوينى عندما أشار إلى اعتلاء كيوك عرش القاآنية قائلاً ، حين وصل كيوك إلى أمة لم يقبل أن يباشر الحكم بنفسه ، بل اكتفى بتنفيذ أحكام أمه ومشاركتها (١) ، بدأ يعمل على تصفية الحسابات مع بقية المعارضين لحكمة ولوالدته ، فأخذ على عاتقه أن يخضع باتو بسبب موقفه العدائى منه بصفة خاصة ومن أسرة أوكتاى بصفة عامة ، خاصة وأنه رفض حضور القوريلتاى متعللاً بمرضه (٢) . وبذلك كان اختيار كيوك مؤشراً خطيراً لاندلاع العداوات والخصومات مع باتو وأكدت ذلك رواية مؤرخ المغول عندما قال ، وأخذ (أى كيوك) يضمر الغدر لباتو ، (٣) . ويرجح أن توراكيناخاتون هى التى حرضت كيوك للتخلص من باتو باعتباره خطر كبير يهدد مكانه توراكينا أولاً ثم عرش الخانية ثانياً ، بحيث بدا وكأن الامبراطورية المغولية على وشك الدخول فى حرب أهلية ، خاصة وأن كيوك سار على رأس جيش جرار لتأديب باتو (٤) . ولدينا رواية تشير إلى دور سرقويتى بيكى فى تحذير باتو من النوايا السيئة لكيوك عندما أرسلت إليه رسالة تتضمن هذا المعنى وتطلب منه الاستعداد ، فحمد باتو هذه المنة كثيراً ، وصار يستعد لقتاله ، (٥) . ولكن لم يكد كيوك يصل إلى حدود سمرقند حتى وافاه الأجل المحتوم فى ربيع الثانى من

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٥ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٢ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٥ .

عام ٦٤٦ هـ أو ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م [١] . وبذلك أدى موت كيوك المفاجئ إلى وضع نهاية لحرب أهلية بين أعضاء الأسرة الحاكمة المغولية وكان لا يعلم مداها إلا الله ، وكانت ستتسبب فيها تلك المرأة المتعجرفة توراكيناخاتون .

دور توراكيناخاتون فى التوجه السياسى والدينى لامبراطور المغول :

وحرى بالذكر أن حكم كيوك القصير لم يكن خيراً للاسلام والمسلمين بحيث يمكن القول أن انتخابه قاآناً كان يمثل انتصاراً للمسيحية وانتكاسة للعقائد والأفكار والتقاليد المغولية القديمة ، بل أننا نرى أنه كان وبالاً على الاسلام والمسلمين داخل الامبراطورية المغولية . ولا شك أن ذلك يرجع إلى تأثير أمه توراكيناخاتون التى كانت تدين بالمسيحية [٢] ، على المذهب النسطورى ، مما يؤكد تسامح المغول مع النساء والسماح لهن

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٩ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٥ .

(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٢٨ .، هذا وقد إشتهر المغول بالتسامح الدينى وكانوا بصفة عامة بعيدين عن التعصب لمذهب دون الآخر ، ولذا كانت تتنازعهم ديانات مختلفة من شامانية وبوذية ومسيحية وإسلام . للإستزادة راجع د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٣٣ ، د. سعد زغلول فى مقاله الرائع : الترك والمجتمعات التركية مجلة كلية الآداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٧– ٨٣ . ويرى أحد المؤرخين المحدثين الأجلاء فى رأى مستنير له أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح عند المغول يرجع إلى ما إشتهر به المغول من عدم الإكتراث بالدين ، يعتبر حكماً لا يستند إلى أساس متين ، وأن هذا التسامح لم يكن المقصود منه سوى الإفادة من الأشخاص الأكفاء مهما إختلفت دياناتهم . العرينى : المغول ، ص٢٦ – ٢٧ . ويذكر شبولر للتدليل على التسامح الدينى عند المغول ، أنه فى العاصمة قراقورم إرتفعت مبانى الكنائس والمساجد والمعابد البوذية فى منافسات لا تخلو من الحسد والغيرة . شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٣ .

باعتناق ماشئن من الأديان ، فألقت بظلالها عليه ، وأكدت أن ميول المرأة المغولية السياسية وديانتها كان لها تأثير قوى على الاتجاه السياسى والدينى لقاآن المغول ، وهذه نقطة من الأهمية بمكان سنتوقف عندها فى العديد من المواضع فى تلك الدراسة ؛ لأنها لن تتضح فقط فى عهد كيوك ، بل تكررت بعد ذلك فى عهد منكوقاآن مع وجود بعض الاختلافات وأيام هولاكوخان مغول فارس ، وهى الأمور التى سنوضحها فى وقتها ومكانها المناسب خلال دراستنا هذه . وسوف نوضح أيضًا بعد قليل كيف أن تأثير ديانة أمه عليه سيلقى بظلاله أيضًا ليس فقط على السياسة الداخلية للقاآن فيما يتعلق بموقفه من المسيحيين والمسلمين داخل الامبراطورية المغولية ، بل أيضًا على السياسة الخارجية للامبراطورية المغولية فى عهده خاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين المغول والصليبيين فى غرب أوربا ، وكيف أن البابوية حاولت انتهاز فرصة تعاطف القاآن وأمه مع المسيحيين لتكوين تحالف صليبى مغولى ضد المسلمين فى الشرق (١) .

أن تعصب هذه المرأة لمسيحيتها دفعها لأن تدفع بابنها الأثير لديها لتتلقفه أيدى قداق المسيحى الذى تولى تربيته وأصبح بمثابة أتابكًا له (٢)

---

(١) تحدث عن هذه الأمور بالتفصيل إيجوردى راشولتس Igor De Rachewilts, papal envoys to the Great Khans, London 1971, pp. 120 - 125 .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٤ ، ١٨٨ ؛ أيضًا الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ .. كان قداق أمير من قبيلة ناريمان الذى إنتشرت بينهم المسيحية ، وأتخذوا عن الأويغور أبجديتهم . وكان قداق مسيحيًا نسطوريًا ، ووصل إلى مرتبة الوزارة فى عهد خانية كيوك . الجوينى : جهانكشاى . ج١ ص٢٢٦ ج١ ؛ أيضًا د. العرينى : المغول ، ص٥٤ . معتمدًا على مصادر لم يذكرها .

فرياه ، منذ نعومة أظافره (١) ، طبقًا لتوجيهات توراكيناخاتون ، على التعصب للمسيحية والشدة والقسوة مع غيرها من الديانات (٢) . ثم وجد نفسه فيما بعد يقع تحت تأثير وزير مسيحى هو چينقاى قوى فيه هذا الاتجاه أى الانتصار للمسيحية (٣) ، واضطهاد أصحاب الديانات الأخرى، وذلك بتشجيع من أمه توراكينا ، مما يؤكد مدى تأثير المرأة المغولية على ميول الخان الدينية والسياسية أيضًا ، لأن كيوك بتلك النشأة المسيحية كان ينتمى إلى جيل من الشباب المغولى يمثل ميولاً مختلفة جديدة بدت آنذاك بأنها سوف تنتصر فى النهاية وتسود بين أمه المغول خاصة بعد أن عرفت المسيحية على المذهب النسطورى طريقها بين صفوف المغول منذ عدة قرون (٤) . ومع توغل الجيوش المغولية الغازية اكتسب الدين المسيحى قوة داخلية جديدة وحماسًا تبشيرياً ، ولذلك تركت هذه الديانة انطباعًا عميقًا على عقلية كيوك ، وحتى لو لم يكن نسطورياً بشخصه إلا أنه أظهر محاباه عظيمة للمسيحيين مدى حياته ، وكان عصره يمثل العصر الذهبى للنصرانية والنصارى فى الدولة المغولية .

وبتأثير من أمه توراكيناخاتون المسيحية من جهة ، وبتأثير من وزيرة المسيحى من جهة ثانية ، أظهر كيوك عطفاً شديداً على رعاياه المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس على النحو الذى أكدته

---

(١) يذكر رشيد الدين فى موضع آخر من كتابه أن جمعًا من المسيحيين كانوا يلازمونه من أوان (الصبا) الذين رسخت عقائدهم فى طبيعته .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٨٤ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ .

(٤) د. العرينى : المغول ، ص٣٦ .

مصادر المغول (١) ، ولما شاع ذلك عنه هرع إلى بلاطه كثير من القسيسين والرهبان من بلاد الشام والروم والآس والأوروس وبغداد (٢) . كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهداً أمامهم للاشراف على الشئون الطبية فى البلاط المغولى والذين فاق عددهم ببلاطه عدد رجال الدين (٣) ، وترك أمر الحل والعقد فى الدولة بين أيدى قداق وچينقاى ، ففوض حل كل الأمور وعقدها ، وقبضها وبسطها إلى قداق وچينقاى، (٤) ، وأرتفع شأن النصارى فى عهده ، ولم يرتفع فى عهده شأن المسلمين (٥) الذين لقوا الاضطهاد والتنكيل (٦) ، واستغل المسيحيون من ناحيتهم هذا الوضع لمهاجمة الاسلام مهاجمة عنيفة من غير أن يجرؤ المسلمون على معاملتهم بالمثل (٧) .

وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية فى الأوساط المغولية ، وكل ذلك بتأثير من والدته المسيحية توراكيناخاتون ذات الشخصية المتسلطة المتعجرفة ، والتي كان لتأثيرها وميولها الدينية الأثر الكبير على ميول القاآن وسياسته الداخلية تجاه الطوائف الاسلامية .

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٤ ؛ أيضاً De Rachewilts, papal envoys, p. 124.

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٤ ، ١٨٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ .

(٣) الجوينى :جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٨ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٤ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٨ .

(٦) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٨ .

(٧) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٤ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٣٨ . ويذكر رشيد الدين أنه لم يكن لأى مسلم الجرأة على أن يخاطب النصارى بصوت مرتفع . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٨ .

ولذلك فإن منهاج الدين الجوزجانى قد حوى مصنفه نقداً عنيفًا لكيوك على مناصبته العداء للاسلام واضطهاد المسلمين (١) . بل وصل تعصبه للمسيحية أنه عملاً بنصيحة راهب بوذى ، كما يذكر الجوزجانى ، يسمى تورين كان قد اكتسب شهرة كبيرة فى بلاد الصين وتركستان ، أن أصدر كيوك قراراً بخصى جميع المسلمين ، ولكن حدث عندما كان هذا الراهب البوذى يحمل هذا القرار لتنفيذه هاجمه كلب شرس فمزقه شر ممزق ، وهذا الجزاء العادل من الله ، كما يذكر الجوزجانى ، كان له تأثيره على نفس كيوك ، مما جعله يعدل عن قراره (٢) . ويقال أن النصارى ومعهم بعض البوذيين ، دبرا مؤامرة ضد المسلمين أثناء صلاتهم ، وبموافقة كيوك ووالدته (٣) ، حيث انهالوا ضرباً على المسلمين أثناء صلاتهم ودقوا رؤوسهم بالأرض ، ويقال أنه فى نفس تلك الليلة هلك كيوك جزاءاً وفاقًا لما جنت يداه فى حق المسلمين (٤) .

والواقع أن هذا العطف الشديد على رعايا الامبراطورية المغولية من المسيحيين من قبل توراكيناخاتون الأم ، وكيوك الابن والقاآن ، كان له آثار مدوية فى الغرب الأوربى (٥) ، مما أغرى البابا أنوسنت الرابع ،

---

(١) الجوزجانى : طبقات ناصرى ، كلكتا ١٨٦٤ ، ص٣٩٩ - ٤٠٦ . عندما يتحدث الجوزجانى عن كيوك يصفه دائمًا بالملعون أو يقول ، لعنة الله ».الناشرون لكتاب جوزجانى ، الصفحات السابقة .

(٢) جوزجانى : طبقات ناصرى ، ص٤٠٤ .

(٣) جوزجانى : طبقات ناصرى ، ص٤٠٤ .

(٤) جوزجانى : طبقات ناصرى ، ص٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٥) عند وصول لويس التاسع إلى جزيرة قبرص عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م أرسل ملكها رسالة من سمباط أخو هيثوم ملك أرمينيا يشير إلى ما أحرزته النصرانية من نجاح كبير بين المغول فى عهد كيوك وإلى أن الخان الأعظم نفسه قد إعتنقها قبل قليل من هذا -

الذى كان قد خلف جريجورى التاسع ، وبدأ يتبنى سياسة تقوم على تحول المغول إلى المسيحية كوسيلة لايقاف هجماتهم على أوروبا ، لأن الدين سيمنعهم من ذلك ، وفى نفس الوقت امكانية استمالة خان المغول كيوك ، وبتأثير من والدته المسيحية ، إلى جانب الغرب المسيحى الأوربى، وعقد تحالف مسيحى ، مغولى مشترك ضد المسلمين فى الشرق الاسلامى ، وذلك تمهيداً للقيام بعمل مشترك فى قتال العدو المشترك للمغول والمسيحيين وهم المسلمون فى بغداد والشام ، خاصة وأن المغول قوة لها وزنها ويحسب لها ألف حساب (١) .

وهذا الأمل المرتجى أدى إلى انفاذ البابا أنوسنت الرابع سفارة للراهبين يوحنا الكاربينى John plano di carpini وبندكت البولندى عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥م على أن يترأسها كاربينى (٢) ، حيث توجهت إلى بلاد المغول بعد وفاة أوكتاى وأثناء حكم القاآن الجديد كيوك . ورأى البابا بهذه السفارة أنه مع أن خان المغول قد لا يكون مسيحياً أو حتى برستر يوحنا (٣) ، فإن الأمل كان معقوداً بأنه سوف يساند العقائد المسيحية

= التاريخ ، وأن كاتب الرسالة زار بنفسه بيعة النصارى بسمرقند ورأى بها صورة المسيح والمجوس الثلاثة . أما المسلمون ، وفقًا لهذه الرسالة ، فهم ينالون الآن جزاء ما اقترفت أيديهم بحق النصارى ، برتولد : تركستان ، ص٦٩٥ والحواش .

(١) Rachewilts, papal envoys , pp/ 22- 23.

يلاحظ أن البابا أنوسنت الرابع كان يختلف تمامًا عن سابقه جريجورى التاسع ومن سبقه من البابوات ، بإدراكه حقيقة الخطر المغولى . ولهذا فإن محاولته للتحالف مع المغول كانت بالغة الأهمية للأزمنة التالية بما إجتمع لديه من الدراية بأحوال المغول .

(٢) Rachewilts, papal envoys , p.121 .

(٣) برستر يوحنا أوجون كان موضوعاً لأسطورة ذلك الملك المسيحى المشرقى الذى سيقدم من الشرق ، ويهزم المسلمين ، ويأخذ منهم فلسطين وبيت المقدس . للاستزادة عن ذلك راجع : =

ضد المسلمين ، بما شنه من حروب ضدهم ، ولأن من أفراد الأسرة المغولية الحاكمة من تزوج بأميرات مسيحيات [١] ، وكان على رأسهم توراكيناخاتون والده الخان الأعظم ، وصاحبه التأثير القوى عليه وهو المنتصر للمسيحية [٢] ، والتى يبدو أنها قد وضعت فى اعتبار وخطة البابا أنوسنت الرابع فى التأثير على كيوك لعقد مثل هذا التحالف المسيحى المغولى ضد الاسلام . وإذ تراءى للمسيحيين فى الغرب أن لهم حليفاً قوياً فى الشرق ، أصبحت الفرصة سانحة للدعوة إلى حملة صليبية جديدة ، كان فى انتظارها محارب صليبى ، نذر أن يشترك فى الحروب الصليبية وهو لويس التاسع . وهكذا أكدت هذه الأحداث مدى تأثير المرأة المغولية على السياسة الخارجية للامبراطورية المغولية ودورها الحيوى فى وضع اللبنة الأولى لتحالف مغولى صليبى ضد المسلمين فى الشرق .

وكيفما كان الأمر فقد غادرت السفارة الأولى بقيادة الراهب والمبشر

= Newton, A.P., Travel and travellers of the middle ages, London 1930, chapter TX .

(١) أكدت المصادر المغولية على ذلك بذكر الخواتين اللائى إعتنق المسيحية وسوف نذكر دور هؤلاء الخواتين فى مكانهم المناسب من الدراسة . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٢ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٨ .

(٢) هناك سفارة أرسلت من قبل القائد المغولى بالموصل إيلجيغداى عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ إلى الملك لويس التاسع فى جزيرة قبرص وهو فى طريق ذهابه للقيام بحملته على مصر ، وهناك أنبأ المبعوثون لويس بأن والدة كيوك نصرانية وأن كيوك نفسه قد إعتنق المسيحية ومعه ثمانية عشر من أمراء البيت المالك وعدد كبير من المغول وأن إيلجيغداى نفسه قد تم تعميده من زمن طويل . برتولد : تركستان ، ص٦٩٤ – ٦٩٥ والحواشى . معتمد على مقال Pelliot, Les Mongols et la papauté أيضاً د. العرينى : المغول ، ص١٩٤– ١٩٥ .

الفرنسسكانى يوحنا كاربينى ليون فى أبريل ١٢٤٥م / ٦٤٣ هـ ، واجتاز روسيا وبرارى آسيا الوسطى حتى بلغ معسكر الخان بالقرب من قراقورم فى أغسطس ليشهد مجلس القوريلتاى الذى انتخب كيوك خاناً أعظم على كل المغول (١) . واستقبل كيوك مبعوث البابا خير استقبال ، غير أنه عندما تبين له أن البابا يدعوه إلى اعتناق المسيحية ، لم يسعه إلا أن يرد عليه ، طالبًا منه أن يعترف بسيادته ، وأن يقدم عليه مع سائر أمراء الغرب لتقديم الولاء والطاعة للخان الأعظم ، ذلك أن انطباع كيوك وتفسيره لحضور المبشر المسيحى كاربينى هو أن البابا فى الغرب الأوربى يضع نفسه تحت حمايته وسلطته ، وظهر هذا بوضوح فى الخطاب الذى سلمه كيوك لبعثة البابا (٢) . وعندما عاد يوحنا كاربينى إلى المقر البابوى فى نهاية عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٧م قدم للبابا رسالة خان المغول ، ورفع إليه تقريراً مسهباً أشار فيه إلى أن المغول على لسان كيوك لا يتحالفون مع أحد ، بل يخرجون للفتح أو للغزو (٣) .

وحتى تلك السفارة التى أرسلها بايعاز من البابا ، الكند سطبل سمباد الأرمنى الذى بعثه أخوه هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى إلى كيوك ، واستغرقت رحلته فى الفترة ما بين (٦٤٥ - ٦٤٩ هـ/ ١٢٤٧- ١٢٥٠م)

---

(١) Carpini, History of the mongols, pp. 27 - 28.

وأشار لوجوده كل من الجوينى ورشيد الدين بالتلميح دون التصريح وذلك تحت إسم «رسل الفرنج» ، رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ج١ ص٢٣١ .

(٢) أن رسالة كيوك إلى البابا أونسنت الرابع ما تزال محفوظة فى أرشيفات الفاتيكان . راجع شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤١ حاشية (١) .

(٣) Carpini, History, pp . 30 - 31 .

فإنه فاق بيان كاربيني في ادراك ما يعود على المسيحيين من مزايا إذا تم التحالف مع المغول ، واستقبله كيوك بحفاوة بالغة ، ومنحه براءة تكفل للملك هيثوم الأول المحبة والحماية . وفي الرسالة التي بعثها سمباد في فبراير ١٢٤٨م / ٦٤٦ هـ من سمرقند ، إلى صهره الأول ملك قبرص ، ما يشير إلى أهمية النساطرة في بلاط المغول وامبراطوريتهم إذ عاشوا في حماية الخان وحظوا منه بالتشاريف ، وجعل لهم الامتيازات ، وأعلن حمايته لهم [١] . ولكن يبدو أن كيوك لم يعدهم بشيئ ورد عليهم رداً مشابهاً لرده على سفارة كاربيني . على أنه بموت كيوك عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٨م ، ثم بموت أمه توراكيناخاتون بعد شهرين أو ثلاثة أشهر [٢] ، انتهت كل آمال نصارى الغرب الأوربي وعلى رأسهم البابا في اقامة تحالف صليبي مغولي ضد المسلمين في المشرق والمغرب الاسلاميين ، وانتهت تلك الآمال المشرقة التي دغدغت أحلام المسيحية بشكلها النسطوري ، وتمتعت بها أثناء حكمه . وبموت كيوك أيضاً انتهى العصر الذهبي للنصارى والنصرانية داخل الامبراطورية المغولية ، وتنفس المسلمون الصعداء في كل أنحاء الامبراطورية المغولية خاصة وأن خليفته منكوقاآن سيعمل من ناحيته على اتباع سياسة مغايرة تماماً لكيوك في موقفه من الاسلام والمسلمين ، ومحاولة التكفير عما فعله سلفه كيوك وترضيتهم واستمالتهم إلى جانبه وذلك بتأثير أمه المسيحية سرقويتي بيكي على النحو الذي سنوضحه عندما نتعرض للتأثير الحضاري للمرأة المغولية داخل الامبراطورية المغولية .



---

(١) د. العريني : المغول ، ص١٩٥ – ١٩٦ . معتمداً على مصادر لم يذكرها .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٩ .

دور فاطمة خاتون :

وقبل أن نطوى هذه الصفة عن دور امرأة مغولية اتسمت بالتسلط والغرور ، نسير إلى دور امرأة أخرى لا تقل عنها صلفًا وعجرفة لعبت دوراً كبيراً فى تحريك الأحداث السياسة داخل الامبراطورية ، وكانت مثالاً مشابهًا تمامًا لسيدتها توراكيناخاتون بنفس الغطرسة وحب السلطة والتملك ، ولا غرو فى ذلك فقد كانت حاجبة لتوراكيناخاتون وكاتمة أسرارها وهى فاطمة خاتون . وعلى الرغم من أنها لم تكن مغولية الأصل بل كانت ايرانية ، ولكنها عاشت فى قصور المغول وأسهمت بدور حيوى فى الدسائس والمؤامرات التى دارت فى دهاليز وأروقه قصور المغول ولهذا لا نستطيع أن نغمط حقها فى اظهار دورها فى المجال السياسى .

كانت فاطمة خاتون فى بداية أمرها أسيرة وقعت فى أيدى المغول عندما استولوا على مدينة طوس الشهيرة بمشهد على الرضا حيث أتوابها إلى عاصمتهم قراقورم وأوصلوها إلى معسكر توراكيناخاتون [١] . وقد اختلفت الروايات حول الظروف التى أحاطت بظهور فاطمة خاتون على مسرح الأحداث السياسية ، ففى حين تشير رواية رشيد الدين الموجزة أنها أُحضرت إلى قراقورم ومنها إلى معسكر توراكيناخاتون ، حيث رأت فيها مخايل الذكاء والكفاءة ، فجعلتها موضع ثقتها وكاتمة أسرارها [٢] . تذكر رواية الجوينى التى احتوت تفاصيل أكثر من رواية مواطنة رشيد الدين ،

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٥ . ويذكر الجوينى أنها بيعت فى قراقورم بواسطة الدلالين فى السوق إلى دلالة فعلمتها هذه الدلالة كل فنون الذكاء والدهاء . وكانت تأتى بها كثيراً إلى معسكر توراكينا خاتون .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ .

أن فاطمة خاتون دخلت فى خدمة الأمير چينقاى المسيحى النسطورى وأحد المقربين لكيوك وأمه توراكيناخاتون ، وتقربت منه حتى أصبحت بمثابة حاجبة له وكاتمة لأسراره وموضع ائتمانه ، لدرجة أنها تمكنت بعد فترة من السيطرة عليه وعلى تفكيره (١) ، وذلك قبل أن تدخل ضمن حاشية توراكيناخاتون .

وكيفما كان الأمر ، فقد توطدت العلاقات بين فاطمة خاتون وسيدتها توراكيناخاتون التى توسمت فيها الذكاء الحاد والكفاءة والقدرة على تدبير الأمور والتوجيه والمقدرة (٢) . بلغ من ثقة توراكيناخاتون بها أن جعلتها الحاجبة الخاصة بها وكاتمة أسرارها . ويبدو أن فاطمة خاتون أرادت أن تكون صورة مشابهة لسيدتها ، فظهرت كامرأة شديدة البطش والبأس واتسمت سياستها ازاء رجال الدولة بالعنف والشدة ، واستطاعت فى فترة وجيزة أن تصبح شخصية مرموقة فى البلاط المغولى حتى « طالت يدها إلى منع الناس عن الوصول إلى غاياتهم » (٣) ؛ وإلى حد أن جميع سادات مشهد طوس كانوا يتقربون منها ويخطبون ودها لزعمها أنها من نسل الأئمة ، ولذلك أحاطوها بهالة من القدسية (٤) . وأصبحت توراكيناخاتون تستشيرها فى كل شئون الدولة خاصة قبل توليه كيوك عرش القاآنية .

---

(١) الجوينى :جهانكشاى ، ج١ س٢٢٦ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ ؛ أيضاً عبد الله رازى همدانى : تاريخ إيران ، تهران ١٣١٧ هـ . ش ، ص٤١٨ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٦ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٦ . ويذكر مؤرخ المغول أن كبار وعظماء الدولة كانوا يتخذونها وسيلة لتحقيق أغراضهم الشخصية . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ .

ويفهم من نصوص مصادر المغول أن توراكيناخاتون ، تلك المرأة الحديدية المتعجرفة ، قد وقعت تحت تأثير وصيفتها المسلمة فكانت تقوم بعزل الوزراء وأركان الدولة من كبار رجال أوكتاى ، ممن يعارضون سياستها ومكانتها ، وكان على رأسهم چينقاى الوزير الأعظم للقاآن ، ومحمود يلواج [١] ، صاحب الديوان وذلك عن طريق أحد رجالها ويسمى عبد الرحمن [٢] ، حيث وجهت لهما تهمًا ملفقة بالخروج على طاعة الدولة [٣] ، وهى تهم عقوبتها الاعدام طبقاً لقوانين الياسا . وقد نجح كل من چينقاى ويلواج [٤] فى الفرار بحياتهما حيث لجئا إلى كنف الأمير كوتان أحد أبناء توراكيناخاتون وشقيق كيوك طالبين منه الحماية من بطش وغدر حاجبه توراكيناخاتون [٥] . وقد أوعزت فاطمة إلى سيدتها توراكينا أن ترسل إلى كوتان تطلب تسليم الفارين فأجابها كوتان قائلاً «إن بغاث الطيور التى تهرب من مخالب الصقر ، وتلجأ إلى شجيرة الشوك ، تأمن صولة العدو ، وحيث أنهما لجئا إلينا تكون اعادتهما أمراً بعيداً عن المروءة » [٦] .

---

(١) يلواج : لفظ تركى معناه السفير أو المبعوث . راجع شبولر : العالم الإسلامى ، ص٨٥ ؛ د. الصياد فى تعليقاته على كتاب رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٩٣ حاشية .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٤) يلاحظ أن محمود يلواج هذا كان قد عينه أوكتاى حاكمًا على منطقة ما وراء النهر وعاصمتها خجند ، وأنه لعب دوراً كبيراً فى إعادة بناء وتنظيم هذه المنطقة الذى عصف بها الخراب بسبب الغارات المدمرة للمغول . راجع شبولر : العالم الإسلامى ، ص٨٥.

(٥) للإستزادة عن ذلك راجع الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٣ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٧.

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١١٧ . وأورد الجوينى عبارة مشابهة لعبارة رشيد الدين . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٣ .

لقد أدركت فاطمة خاتون أن بقاء كل من چينقاى ومحمود يلواج فى حماية كوتان من الممكن أن يهدد مكانتها ، ولذلك بدأت تدبر للتخلص من كوتان نفسه الذى تعهد بحماية عدويها اللدودين . ويقال أنها لجأت إلى السحر لتنفيذ مآربها والانتقام من كوتان وأتهمها ، أحد العلويين من أهل سمرقند - كان فى الأصل ساقياً لقداق أتابك كيوك ويدعى شيره - بأنها عملت سحراً لكوتان إلى أن مرض وثقلت عليه العلة حتى مات [١] .
وبدا وكأن الدنيا بدأت تدبر عن فاطمة خاتون بعد أن أقبلت عليها ، فبعد أن تسنم كيوك خان عرش القاآنية ، واستعان فى حكمه بمستشارين ووزراء من النساطرة وعلى رأسهم چينقاى الذى عاد إلى منصبه وزيراً أعظم للبلاط المغولى وارتفع نجم قداق أيضاً ، أغروا كيوك بفاطمة وأقنعوه بأنها كانت السبب الرئيسى فى موت أخيه كوتان عن طريق السحر . ولما كان من ضمن قوانين الياسا الچنكيزخانية تحريم السحر أو أن تمتهن المرأة السحر وأن يكون عقوبة ذلك القتل وذلك بالاغراق فى الماء [٢] ، فتم تقديمها للمحاكمة وجرت محاكمتها على أيدى ذلك العلوى السمرقندى شيره ، فقيدوها وعذبوها لتعترف بما صنعت ثم وضعوها داخل لباد وألقوا بها فى أليم ، وتتبعوا بالقتل والتعذيب كل من كان من أتباعها أو أقاربها [٣] .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ١٢٢ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٦ ؛ ويلاحظ أن رواية الجوينى هنا تتسم بالإضطراب وغير منطقية وتتعارض إلى حد ما مع رواية مؤرخ المغول رشيد الدين .

(٢) Rubruck, The Journey of william Rubruck, pp. 104 - 105, 199 - 200 .
وقد نفذ هذا الحكم فى حق ساحر وساحرة أثناء وجود وليم روبروك فى بلاط الخان منكوقاآن ووصفه لنا ذلك فيما دونه وصفاً جيد فى المصدر السابق .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٦ - ٢٢٧ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٩ ؛ أيضاً D'ohsson, Histoire des Mongols, To. II, pp. 232 - 233 -

دور أوغول غايمش (أوقول قايمش) أرملة كيوك خان (٦٤٧ - ٦٤٨هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٠م) :

ولدينا مثال آخر لامرأة من الأسرة الحاكمة انتابتها رغبة عارمة فى الاحتفاظ بعرش الخانية فى نسل زوجها واتبعت من أجل ذلك كل الوسائل ودبرت المؤامرات والخطط ، وبذلت كل غال ونفيس ، كما ارتكبت الكثير من الحماقات أيضًا لتحقيق غايتها ، وكان إحدى هذه الخطط القيام بانقلاب عسكرى للاستيلاء على العرش المغولى وقتل القآن المغولى ليستمر نسلها فى السيطرة على مقدرات الأمور فى الامبراطورية المغولية وهذه المرأة هى أغول (أو أوغول) غايمش [1] أو أوقول قيمش (أو قايمش) [2] زوجة كيوك خان [3] ، وهى مركتية

= وتشير رواية الجوينى إلى أن توراكينا خاتون قد تنكرت لفاطمة خاتون وأدارت ظهرها لها بعد أن تأكدت أنها السبب فى وفاة إبنها كوتان ، بالإضافة إلى أن فاطمة خاتون بدأت فى أيامها الأخيرة التى سبقت محاكمتها ، لا تأبه لأوامر توراكينا خاتون ولا تستجيب لطلباتها . الجوينى : جهانشكاى ، ج١ ص٢٢٦ . ويلاحظ أن الجوينى هو المؤرخ الوحيد الذى أنفرد بهذه الرواية ، وجرى بالذكر أن شيره العلوى الذى إتهم فاطمة خاتون بأنها سحرت لكوتان وتسببت فى وفاته ، وقام هو نفسه بمحاكمتها وتعذيبها وإعدامها ، قد ذاق هو أيضاً من نفس الكأس عندما اتهم هو أيضاً ، بعد وفاة كيوك الخان الأعظم ، بممارسة السحر ، فحوكم وعذب ثم ألقى به فى اليم وقتلوا نسائه وأبناءه . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٧ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٩ .

(١) هكذا ذكرها الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٠ . وأخذ بهذا الرسم كل من برتولد : تركستان ، ص٦٨١ ؛ شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٢ .

(٢) هكذا ذكرها رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٧ ، ٢١١ . وقد أخذ أحد المؤرخين المحدثين بالرسمين معًا . فذكرها تحت إسم أوغول قايميش . راجع د. العرينى : المغول، ص١٩٥ .

(٣) من المهم جداً ألا نخلط بين أغول غايمش زوجة كيوك ثم أرملته فيما بعد وهى مركتية الأصل ، وإحدى زوجات القآن منكو وتحمل نفس الإسم (أوقول قويمش) =

الأصل (١) أنجبت له ولدين هما ناقو وخواجة (٢) . وبعد وفاة زوجها تولت الوصاية على العرش المغولى طبقًا لقوانين المغول ، التى كانت تولى المرأة العرش مؤقتًا بعد وفاة زوجها حتى يتم انتخاب الخان الجديد ، وأن دل ذلك على شئ فإنما يدل على مدى الاحترام الشديد الذى يكنه المغول للمرأة إلى حد أنهم أجلسوها ، للمرة الثانية فى التاريخ المغولى ، بعد توراكيناخاتون ، كوصية على العرش لحين دعوة القوريلتاى إلى الاجتماع لاختيار القآن الجديد وذلك عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م ، واستمرت وصايتها على العرش ما يقرب من سنتين ويعاونها فى ذلك الوزير چينقاى وبعض كبار رجال الدولة (٣) .

وتوضح مصادر المغول مدى حرص أوغول غايمش فى فترة وصايتها على أن تحتفظ بالعرش المغولى فى نسل كيوك خان دون غيره بغض النظر عن الوسائل التى تتبعها لتحقيق ذلك ، ولذلك كانت تقضى معظم أوقاتها فى خلوة مع السحرة وكانت مشغولة بهذيانهم وخرافاتهم(٤) ؛ معتقدة بذلك أنها تستطيع تحقيق آمالها وطموحاتها فى عرش القآنية

- ولكنها من قبيلة الأويرات كانت أختًا لأولجاى خاتون ، وكانت قوية الشخصية ومسيطرة إلى حد كبير وكانت فى البداية خطيبة لتولوى خان . ولم تنجب هذه السيدة سوى ابنتين : شيرين ، بيجقة . راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٥ - ١٩٦ .

(١) قوم مركيت يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكرايت على مجرى نهر سلنجا وجنوب بحيرة بايكال وهم من جنس مغولى ، وعاشوا على الصيد فى الغابات ولذلك عرفوا بإسم قبائل الغابات . والمعروف أن والده چنكيزخان وزوجته الأولى تنتميان إلى المركيت . د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٩ ؛ العرينى : المغول ، ص٣٧ .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٠ - ٢٤١ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٢ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٦ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨١ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٦ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٢ .

بتصديق خرافات السحرة واضاعة الوقت معهم مما أدى إلى فساد السياسة فى الدولة (١) ، خاصة وأنها حرصت على إثارة الحقد والضغائن ضد من تخشى معارضتهم لها خاصة من الأبناء والأقارب سيراً على سياسة أو مبدأ « فرق تسد » . وعندما ظهر اتجاه قوى بين أمراء ونبلاء الأسرة المالكة لتعيين أو ترشيح منكوقاآن على عرش الخانية ، وذلك بسعايه واهتمام والدته سرقويتى بيكى ، أبدت هى وأبنائها خواجة وناقو معارضة شديدة أن يكون العرش المغولى فى سلالة تولوى خان (٢) . والمرجح أنه قام صراع خفى لم تشر إليه المصادر المغولية ، بين كل من أوغول غايمش وسرقويتى بيكى فيمن يتولى عرش القاآنية ، لدرجة أن سيورقوقتيتى بيكى ، قد أرسلت إليهم العديد من الرسائل تحمل المواعظ والنصائح لهم من معارضتهم لانتخاب منكو واثارة الفتن داخل صفوف الأسرة الحاكمة (٣) ، لأن ذلك ربما يؤدى لاثارة الفتن والقلاقل داخل الامبراطورية ، ولنشوب حرب أهلية بين المغول أنفسهم حول العرش «فكان الأبناء يظهرون الاستبداد والتعنت بسبب صغر سنهم ، وقلة تجربتهم ، ويقدمون على أعمال غير معقولة » (٤) ، كما « استبد الوالدان بآرائهما الفجة ، فى حين أن غايمش أبدت استعداداً لردع أهل الرأى والصواب « مسايرة هواها » (٥) .

وبما اشتهر عن أوغول غايمش من حماقات وعن أبنيها الاثنين

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٢ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٦ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٢ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٦ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٦ .

(٥) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٢ .

خواجة وناقو من اندفاع وتهور وحماقة أيضاً ، فالمرجح أنها حرضتهما لتدبير مؤامرة للتخلص من منكوقاآن ، وبالفعل تم تدبير المؤامرة لاغتياله ، إلا أنها اكتشفت بعد أن أدرك الأخوين ناقو وخواجة مدى الكوارث التى كانت ستجلبها تلك المؤامرة على البلاد ، ولذا تخليا عما كانا ينويان القيام به استجابة لنصيحة العقلاء من الأسرة الحاكمة (١) .

وقد ترتب على ذلك وقوع الخلاف بين غايمش وأبنيها خواجة وناقو ووقعت الفرقة بين الأمراء ورجال الدولة ، كما أن الخلاف الذى وقع بين الأم والأبناء تسبب فى الخلاف بين ذوى القربى ، مما أدى لانتشار الفوضى داخل الامبراطورية وعبر عن ذلك رشيد الدين قائلاً « وبسبب الخلاف بين الأم والأبناء والأشخاص الآخرين ، وبسبب الآراء المتضاربة والتدابير المختلفة ، أفلت الزمام واختلت الأمور » (٢) . ويصف الجوينى فى الجهانكشاى (٣) هذا الوضع معتمداً على بيتين للشاعر حسين بن على المروروزى المعاصر للدولة السامانية قائلاً :

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما : رأى النساء وامرة الصبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبى يجرى بغير عنان

وقد بلغ من غضب وسخط أقاربها على سياستها الحمقاء أنهم أرسلوا إلى باتو بوصفه أكبر أفراد آل چنكيزخان سناً يخبرونه بضرورة وجود قاآن آخر ليس من ذرية أوكتاى ويفضل أن يكون باتو نفسه (٤) .

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٨٦ . ويوافقه الجوينى نفس الرأى . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٢ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٢ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٢ .

وعلى الرغم من السياسة الخرقاء التى اتبعتها أوغول غايمش فإنه ذلك لم يحول دون مواصلة نشاطها الدبلوماسى فى مجال العلاقات الخارجية بين المغول والغرب الأوربى ، وتمثل ذلك فى استقبالها لتلك السفارة المرسلة من لويس التاسع ملك فرنسا أثناء وجوده فى قبرص وذلك فى محاولة من قبل لويس التاسع لاحياء مشروع التحالف الصليبى المغولى ضد المسلمين فى الشرق ، وهو المشروع الذى بدأ يتبناه البابا أنوسنت الرابع من قبل ، وكانت فكرة التحالف مع المغول الذين أعتنقوا المسيحية ضد المسلمين قد لقيت القبول والاستحسان لدى لويس . وكانت تلك السفارة مرسلة أصلاً إلى القآن كيوك ، وتتكون من الرهبان الدومنيكان برئاسة أندريالونجيمو Longjumeau وأخيه وكلاهما يجيد الحديث باللغة العربية . والواقع أن أندريا كان ينوب عن البابا فيما دار حديثًا من مفاوضات مع المونوفيزيتيين ، وحملا معهما كنيسة صغيرة متنقلة ، على أنها هدية تليق بالخان عن اعتناقه المسيحية ، وبعض المقدسات الدينية اللازمة لهيكل الكنيسة ، فضلاً عن بعض الهدايا والتحف . وغادرت السفارة قبرص فى يناير ١٢٤٩م / آواخر ٦٤٨ هـ ، ومضت إلى حيث مقر قيادة القائد المغولى الموصل ايلجيغداى ، وكان نائب الخان فى فارس (١) ، فوجهها إلى منغوليا ، وحينما وصلت السفارة

---

(١) يقال أن هذه السفارة الفرنسية كانت رداً على سفارة أرسلها إيلجيغداى نائب الخان فى فارس فى مايو ١٢٤٨م إلى لويس التاسع تتكون من مسيحيين داوود ومرقص ويحملان رسالة موجهة من الخان كيوك إلى إبنه ملك فرنسا ، وتنطوى على عزم المغول على حماية المسيحيين اللاتين واليونانيين والأرمن والنساطرة واليعاقبة على إختلاف مذاهبهم ، وتلقى لويس التاسع هذه الرسالة أثناء نزوله بجزيرة قبرص فى ديسمبر عام ١٢٤٨م وجرى تفسير محتويات هذه الرسالة بأن نائب الخان فى فارس فكر سنة ١٢٤٨ فى شن هجوم على بغداد الذى قام به بعد عشر سنوات هولاكوخان مغول فارس ، وأن يرتبط ويتزامن هذا الهجوم بما أعده لويس التاسع من حملة صليبية لمهاجمة مصر ، =

إلى قراقورم ، تبين لها أن كيوك قد مات ، وأن أرملته أوغول غايمش تولت الوصاية على العرش ، فاستقبلت السفارة بالترحاب الشديد ، وعبرت عن تعاطفها الشديد تجاه المسيحيين والمسيحية ، غير أنها اعتبرت ما أرسله الملك لويس التاسع من الهدايا ، جزية يؤديها التابع للسلطان وأن الملك لويس التاسع يجب أن يضع نفسه تحت حماية وسلطان الامبراطورية المغولية ، وأظهرت للسفراء رغبتها الشديدة فى عقد هذا التحالف المغولى – المسيحى ضد المسلمين بالشرق(١) ، خاصة وأنه عرف عنها مدى كراهيتها للاسلام والمسلمين داخل الامبراطورية المغولية (٢) (على النحو الذى سنوضحه بعد قليل) . على أن ما وقع من مشاكل بين أفراد الأسرة المغولية الحاكمة (والتى كانت هى السبب الرئيسى وراءها) يمنعها إذا صحت نيتها ، أن ترسل حملة مغولية ضخمة إلى الغرب للاشتراك معه فى محاربة مسلمى الشرق (٣) .

ولما عاد أندريا من منغوليا ، التى مكث بها نحو ثلاث سنوات لم يحمل معه سوى رسالة أعربت فيها الوصية على العرش ، عن شكرها لتابعها لويس التاسع على ما أبداه من اهتمام نحوها ، وطلبت منه أن يواظب على ارسال الهدايا كل سنة (٤) . وعلى الرغم من ارتياع لويس

= قلب الشرق الإسلامى ، وكانت سفارة لويس المذكورة بالمتن رداً على ذلك . د.العرينى : المغول ، ص٢٠٦ . معتمداً على مقال بليو Peliot .

(١) د. العرينى : المغول ، ص١٩٤ – ١٩٥ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٣ . ويؤيده فى روايته برتولد : تركستان ، ص٦٨٥ .

(٣) د. العرينى : المغول ، ص١٩٥ .

(٤) د. العرينى ، ص١٩٥ . ويبدو أن الدكتور العرينى إعتمد فى استقاء هذه المعلومات على مقال للمؤرخ بليو Pelliot فى كتابه : =

التاسع لإخفاقه فى هذه المحاولة لاستمالة قاآن المغول أو الوصية على العرش المغولى ، إلا أنه لم ييأس مطلقاً ، وكان يأمل أنه سوف يحل الوقت الذى يتم فيه عقد تحالف مع المغول (١) .

واستمراراً للسياسة الخرقاء التى سارت عليها أوغول غايمش فيما يتعلق بموقفها من الاسلام والمسلمين ، فإنها جرياً على سياسة المرأة الحديدية المتسلطة توراكيناخاتون ، أظهرت كراهية شديدة للمسلمين ، وبلغ من حقدها عليهم أنها دبرت مؤامرة دنيئة مع زعيم البوذيين فى بيش باليق وكان يسمى بيدى قوت (٢) (ويسميه برتولد ايديقوت الأويغور(٣)) تهدف إلى قتل جميع المسلمين ببلاده أثناء صلاة الجمعة (٤) . ويذكر برتولد أن الأوامر التى أصدرتها الملكة الوصية أوغول غايمش لتنفيذ ذلك حملها رجل يسمى بالابتيكچى (٥) . ولكن خبر هذه

= Les Mongols et la papauté, Revue de L'orient, chrétien (1922 - 1932)

ويلاحظ أنه تعذر علينا العثور على هذا المقال على الرغم من أننا قمنا بمجهود كبير للوصول إليه . ولذلك إضطررنا فى هذه الجزئية للإعتماد على ما ساقه المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور الباز العرينى .

(١) د. العرينى : المغول ، ص١٩٥ .

(٢) يسميه الجوينى إيدى قوت . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٧٦ ، ٧٧ .

(٣) برتولد : تركستان ، ص٦٨٥ .

(٤) للإستزادة عن ذلك راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٣ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٧٦ – ١٧٧ . وأورد الجوينى تفاصيل أكثر من رشيد الدين . ويؤيد ذلك برتولد والذى يتهم أوغول غايمش بأنها المحرض الرئيسى وراء هذه المؤامرة . برتولد : تركستان ، ص٦٨٥ .

(٥) برتولد : تركستان ، ص٦٨٥ . وتشير رواية رشيد الدين أن غلاماً كان من البوذيين ، أسلم سراً وكان مطلعاً على تلك المؤامرة فوشى بالمتآمرين ، وأثبت إدانتهم . رشيد الدين: جامع التواريخ ، ص٢١٣ .

المؤامرة وصل إلى أحد كبار المسلمين ببشباليق ويسمى سيف الدين عن طريق رجل أويغورى يسمى تكمش (١) ، فى الوقت الذى تولى فيه منكوقاآن عرش الخانية ، فقام بمحاكمة بيدى قوت بنفسه فى أردو القاآن حيث أعترف بجميع تفاصيل المؤامرة ، فحكم عليه بالاعدام على مشهد من الناس ببيش باليق (٢) . وتذكر رواية الجوينى أن منكوقاآن قد حاكمهم بنفسه وأمر بأن تقطع أعناق المتأمرين يوم الجمعة الذى كانت ستتم فيه تنفيذ هذه المؤامرة الدنيئة ، وأن يحضر الحكم المسلمون والوثنيون (البوذيون) على حد سواء ، وأن الذى نفذ حكم الاعدام فى أيدى قوت شقيقه أوكنج (٣) . ويستشهد الجوينى ببيت شعر لأبى تمام مظهراً سعادته بظهور الحقيقة والعدالة من قبل القاآن قائلاً :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار (٤)

وبذلك أدت عدالة منكوقاآن إلى وضع نهاية لفتنة واضطرابات كان من الممكن أن تزعزع أركان حكمه فى بدايتها وكانت ستتسبب فيها حماقة تلك المرأة ، ولهذا وصفها منكوقاآن فى رسالة شديدة اللهجة وجهها إلى ملك فرنسا عن طريق سفيره وليم روبروك يصف فيها أوغول غايمش والتى سبق واستقبلت سفارة لويس التاسع من قبل بالعطف والترحاب الشديد ، بأنها « امرأة شريرة أسوأ من كلبه ، وأنى لها أن تعرف شيئاً فى شئون الحرب والسلم أو مصالح الدولة (٥) » .

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٧٧ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨٥ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ؛ ص٢١٣ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨٥ – ٦٨٦ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٧٨ – ٧٩ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ص٧٩ .

(٥) برتولد : تركستان ، ص٦٩٦ . ويتفق بذلك مع المؤرخ الفرنسى دوسون .

وكيفما كان الأمر ، فإن اعتلاء منكوقاآن عرش الخانية قد آثار حفيظة أوغول غايمش ، التى أدركت أنها أسقط فى يدها وأنها أخفقت فى جعل عرش المغول مستمراً فى ذرية أوكتاى وكيوك ، مما دفعها إلى الاشتراك فى تلك المؤامرة الكبرى التى تناولها مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين بالتفصيل عام ٦٤٨ - ٦٤٩ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥١م ، وكانت تهدف إلى اغتيال منكوقاآن والاستيلاء على العرش ، واشترك فيها الكثير من أسرة أوكتاى ، كما شاركت فيها العديد من النساء (١) ، أمثال توقاشى خاتون (طوقاشى خاتون) زوجة ييسون توقا حفيد جغتاى وقد أقاج خاتون(٢) أم شيرامون . وكان العقل المدبر لهذه المؤامرة الكبرى أوغول غايمش ، بالاضافة إلى بعض النبلاء من أسرة أوكتاى (٣) . وتؤكد هذه الرواية الدور الحيوى الذى قامت به هذه المرأة المغولية لتدبير الاغتيالات السياسية لاغتيال القاآن نفسه وتحقيق طموحاتهن السياسية فى العرش المغولى .

على أن المؤامرة قد اكتشفت قبل تنفيذها (٤) ، وعقدت عدة محاكمات كبرى للمشاركين فى هذه المؤامرة . وترك محاكمة الأمراء والنبلاء إلى القاضى الأكبر أو اليرغوجى منكاسار نويان (٥) ، فى حين

= D'ohsson, Histoire des Mongols, To. I, pp. 306 - 309 .

(١) للإستزادة عن تلك المؤامرة راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٥ - ٢١١ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٢ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٠ - ٢١١ .

(٤) يرجع الفضل فى إكتشاف هذه المؤامرة إلى رجل يسمى كشك القوشجى من قبيلة القنقلى . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٥ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٨ - ٢٠٩ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨٢-٦٨٣ .

حاكم منكوقاآن بنفسه أمراء البيت المالك وعلى رأسهم الملكة أوغول غايمش وقد أقاج خاتون ، فى أوردو (معسكر) سيورقوقتيتى بيكى (سرقويتى بيكى) وأعدمتا ، كما أعدم أيضاً كل من قداق وجينقاى [١] . أما فى ألوس جغتاى فقد أعيدت مقاليد الأمور إلى قراهولاكو ، وترك له أمر محاكمة طوقاشى خاتون ، فأمر أن يقوم بالقاءها تحت سنابك الخيل وأن يشق صدرها المملوء بالحقد الدفين [٢] .

وعلى هذا النحو دفعت أوغول غايمش حياتها ثمناً لسياستها التى اتسمت بالتهور والحماقة من أجل تحقيق طموحاتها فى الحيلولة دون انتقال الحكم إلى سلالة تولوى .

دور نساء أخريات :

ولدينا أمثلة أخرى لنساء مغوليات على النقيض من أوغول غايمش اتسمت سياستهن وتفكيرهن بالتعقل والدهاء ، ويشبهن فى ذلك سرقويتى بيكى ، ولعبن دوراً هاماً فى اجلاس أبنائهن على عرش القاآنية ، وتمثل ذلك فى الملكة ييسولون [٣] ، كبرى زوجات جغتاى الابن الثانى لجنكيزخان من بورته فوجين ، وكانت ابنة قتانويان بن داريتاى آخر ملك قبيلة قنقرات [٤] . وبعد موت جغتاى أجلست الملكة ييسولون ومعها

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٢ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨٣ - ٦٨٤ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٠ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٨٣ .

(٣) هكذا ذكرها رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٣٥ . وأخذ بهذا الرسم برتولد : تركستان ، ص٦٧٣ . وذكرها الجوينى تحت إسم يسلون . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٩ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٣٥ .

وزيرها القوى حبش عميد [١] وكبار رجال الدولة الأمير الشاب قراهولاكو ابن ماتيكان حفيد جغتاى على العرش دون أية مشاكل أو اعتراضات [٢]، طبقاً لوصية جغتاى الذى كان قد عهد لقراهولاكو بولاية العهد مكان أبيه موتكن [٣] ، رغم وجود ابن لجغتاى كان يسمى ييسومنكو [٤] . ورغم ذلك قوبل هذا الأمر بالاعتراض من قبل القاآن كيوك الذى ما إن ارتقى عرش القاآنية قام بعزل رأس ألوس جغتاى قراهولاكو لأنه طبقًا لرأيه لا يجدر بالحفيد أن يرث العرش مع وجود الابن ، فأجلس على العرش صديقه الشخصى المقرب لديه وأحد أنصاره والمعارضين الأقوياء لمنكوقاآن وهو ييسوملكو (مونككا)[٥] أكبر من بقى على قيد الحياة من أولاد جغتاى [٦] ، دون أن يجد معارضة من الملكة الوالدة أو الوزير حبش عميد ، وذلك يؤكد مدى تمسك المرأة المغولية واحترامها لأوامر الخان الأعظم ومبادئ الياسا المغولية .

ولدينا مثال يؤكد مدى حرص المرأة المغولية على مكانة زوجها من الناحية السياسية ومساندتها اياه فى مباشرة أعمال الدولة ، فالمعروف عن ييسومونككا هذا أنه كان مغرماً بالشراب بحيث يقال أنه لم يكن يفيق من السكر إلا بمقدار ما يسلم حيواناً إلى المشرفين على الصيد . ولهذا فإن

---

(١) إسمه بالكامل حبش عميد الملك وكان رجلاً مسلمًا أصله من أترار ، عمل كاتبًا لدى جغتاى ثم أصبح وزيراً له . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٥ ج (١) ، ١٥٨ .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٤٣ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٥٠ .

(٥) هكذا إسمه فى رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٤٤ .

(٦) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٥٠ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٠ .

زوجته نايش [١] ، ذات النفوذ والشخصية القوية كان عليها تحمل عبئ تسيير أمور ألوس جغتاى ، فكانت تباشر أعمال الألوس بنفسها [٢] ، بما فى ذلك تنظيم الصيد بالبزاة [٣] .

دور أورقنة خاتون زوجة قراهولاكو وحكمها لألوس جغتاى ؛ وسياستها تجاه المسلمين :

وهناك مثال آخر لما اتصفت به إحدى الأميرات المغوليات من سداد الرأى والدهاء وحبها للاسلام والمسلمين رغم اعتناقها البوذية وهى الأميرة أورقنة خاتون [٤] ابنة تورالجي كوركان من قبيلة أويرات [٥] .

ويبدأ دور هذه المرأة باعتلاء منكوقاآن عرش الخانية ، حيث عمل على اعادة الأمور إلى نصابها فى بعض الأقاليم بالامبراطورية المغولية ، فأصدر يرليغاً (أى مرسوماً) بعزل ييسومونككا من ألوس جغتاى لأنه كان

---

(١) هكذا ذكرها رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٤٤ . ذكرها برتولد تحت إسم توقاشى . برتولد : تركستان ، ص٦٧٨ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٤٤ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٤٤ ؛ أيضاً برتولد : تركستان ، ص٦٧٨ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ،، ص١٤٤ . وقد ذكرها رشيد الدين فى موضوع آخر بإسم أروقنة خاتون . رشيد الدين . المصدر السابق ، ص١٤٣ . وأخذ بهذا الرسم (أورقنة خاتون) برتولد : تركستان ، ص٦٨٤ . فى حين رسمها الجوينى : أرقينة . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٥١ . وذكرها رشيد الدين بإسم أورغنة فيزى . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٤٧ . وفى موضع آخر بإسم أورغنة خاتون . رشيد الدين: جامع التواريخ ، ص٢٥٤ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٠ . والأويرات أو أويراد : من أصل مغولى ، وكانوا يقيمون فى المنطقة الواقعة بين نهر أونن Onon وبحيرة بايكال . وكانت تقع فى جنوب بايكال تلك مملكة الكرايت التركية د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٩ ؛ د. العرينى : المغول ، ص٣٦ .

من المعارضين لمنكوقاآن ، وصدرت الأوامر إلى قراهولاكو زوج أورقنة خاتون ، بأن يذهب على رأس حملة لقتل ييسومونككا ، ويصير ملكاً على ذلك الألوس بحكم ولايته للعهد (١) . ولكن قراهولاكو قد توفى قبل وصوله إلى الألوس قرب جبال التاى . ولدينا روايتين مختلفتين حول الظروف التى أحاطت بموت قراهولاكو ، ففى حين تذكر رواية الجوينى أنه مات ميتة طبيعية وهو فى طريقه إلى ألوس جغتاى (٢) . ويؤيد هذه الرواية كل من المؤرخ الروسى الكبير برتولد ومعه دوسون (٣) . أما رواية رشيد الدين فتشير إلى أن قراهولاكو لقى مصرعه فى الطريق إذ قتلته زوجته أورقنة خاتون لكى تجلس على العرش وتحكم بدلاً من زوجها ألوس جغتاى (٤) .

ومن الصعب تقبل رواية رشيد الدين التى تتهم أورقنة خاتون بقتل زوجها خاصة وأنها لم تشر إلى الأسباب أو العوامل الملحة التى دفعتها إلى ذلك ، كما أنها لا تستند على أدلة أو أسانيد منطقية قوية ، كما أنه اتهام ليس له أى أساس من الصحة بالنسبة لأورقنة خاتون ، بل على العكس من ذلك فإن قرار منكوقاآن بعودة زوجها إلى حكم ألوس جغتاى كان فى صالحها هى شخصياً ، لأنه سيعيد إليها مكانتها السياسية المرموقة ووضعها السابق ، جنباً إلى جنب مع زوجها قراهولاكو . يضاف إلى ذلك

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٤٤ ، ١٥٠ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٥٠ .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٥٠ .

(٣) برتولد : تركستان ، ص٦٨٣ ، أيضاً .

D'ohsson, Histoire des Mongols, To. II, pp. 271 .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٤٤ ، ١٥٠ .

أن روايات مؤرخى المغول تشير بالتلميح دون التصريح ، أنها لم تكن امرأة متسلطة أو متعجرفة أو أنها على شاكله كل من توراكيناخاتون أو أوغول غايمش اللتان عرفتا بالتسلط والعجرفة ، واتباع جميع الأساليب من أجل تحقيق طموحاتهما فى بقاء العرش فى ذرية أزواجهن (١) .

على أية حال ، ولثقة منكوقاآن فى مقدرتها وكفاءتها وحزمها فى ادارة ممتلكات زوجها الراحل أصدر يرليغًا (٢) بأن تتولى أورقنة حكم الألوس وتكون فى نفس الوقت وصية على ابنها مباركشاة ، صاحب الحق الشرعى فى العرش ، وكان مازال طفلاً فى المهد ، ولهذا ظلت تحكم الألوس منفردة بما يقرب من عشر سنوات (٣) (٦٤٨- ٦٥٨ هـ / ١٢٥٠- ١٢٦٠م) .

وعلى الرغم من أن مصادر المغول لم توضح كيفية سير الأمور فى ألوس جغتاى فى الداخل أو الخارج أو حتى كيف استطاعت هذه المرأة إدارة الألوس فى ذلك العقد من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، إلا أنه يبدو أن أورقنة خاتون التى حازت على ثقة منكوقاآن الخان الأعظم ، بما لديها من ذكاء ودهاء وتبصر بأمور السياسة ، قد

---

(١) يلاحظ أن المؤرخ الروسى الكبير برتولد يؤيد الرأى القائل بأن قراهولاكو مات ميتة طبيعية . برتولد : تركستان ، ص٦٨٩ .

(٢) من المهم جداً أن نذكر أن الجيش الذى كان يقوده قراهولاكو ، لاقرار الأوضاع فى ألوس جغتاى ، رغم وفاة قراهولاكو ، نفذ خطته وأوقع بيسومونككا فى الأسر ، فأرسل إلى باتو حيث قتل . راجع وصاف الحضرة : تاريخ وصاف ، ط. بمباى ١٢١٩ هـ ، ص٧٠ – ٧١ . وهو الوحيد الذى إنفرد بذكر هذه الرواية ضمن مؤرخى الفرس .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٤٤ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٥٠ . على أن الجوينى لم يشر إلى إسم مباركشاة ولا الفترة التى حكمت فيها أورقنة خاتون ألوس جغتاى .

أثبتت جدارتها بهذا المنصب كملكة ووصية فى آن واحد ، فاستطاعت اقرار الأمور في الألوس بحيث لم تشر المصادر إلى وجود أية اضطرابات أو قلاقل خلال فترة حكمها ، مما يؤكد أن عصرها كان عصر ازدهار فى جميع جوانب الحياة في الألوس.

وكان عصرها العصر الذهبى للاسلام والمسلمين فى ألوس جغتاى . فعلى الرغم من أنها كانت بوذية الديانة (١) ، مثلها مثل أوغول غايمش ، إلا أنها كانت على النقيض تماماً منها ومن توراكيناخاتون المرأة الحديدية النصرانية النسطورية ، فقد أحبت الاسلام والمسلمين وبسطت حمايتها على المسلمين فى غيرة شديدة (٢) ، خاصة فى سمرقند وبخارى . بل وتشير رواية مؤرخ المغول أن ابنها مباركشاة نفسه قد أسلم عندما شب عن الطوق ، وكان أول من دخل الاسلام من آل جنكيزخان (٣) . وعندما تسلم الحكم فى ألوس جغتاى ، لم يكن ليسمح بأن يلحق أى ضرر بالمسلمين أو حتى الرعايا غير المسلمين (٤) . وقد بلغ من تعاطف أورقنة خاتون مع المسلمين والسماح لهم بحرية ممارسة شعائرهم وبناء المساجد فى الألوس ، أن أحد المؤرخين المسلمين ويسمى جمال قرشى ذكر أنها كانت مسلمة بالفعل (٥) .

وعلى الرغم من أن المصادر التى لدينا لم توضح سر هذا الموقف الحضارى من قبل أورقنة خاتون تجاه الاسلام والمسلمين ، إلا أننا نرجح

---

(١) وصاف الحضرة : تاريخ وصاف ، ص١٤ – ١٥ .

(٢) برتولد : تركستان ، ص٦٩٠ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥١ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٥١ – ١٥٢ .

(٥) رأى جمال قرشى كما ذكره برتولد : تركستان ، ص٦٩٠ حاشية رقم ١٥٥ .

أنها سارت على نفس سياسة القآن الأعظم منكو ، الذى تمسك بسياسة التسامح الدينى ، فكان يرى أن جميع الأديان جديرة بالاحترام والتقدير ، فكان لا يفرق بين طائفة وأخرى ، وعامل المسلمين والمسيحيين والبوذيين على قدم المساواة ، وكفل الحرية الدينية للجميع ، وتسامح مع المسلمين إلى حد كبير متأثراً فى ذلك بأمة سرقويتى بيكى رغم مسيحيتها (١) . وبذلك تشابهت هذه المرأة المغولية مع معاصرتها سرقويتى بيكى فى ذلك الموقف تجاه الاسلام والمسلمين وتجاه أصحاب العقائد الأخرى ، وهذا إن دل على شيئ فإنما يدل على مدى الرقى والتقدم الذى أصبح عليه فكر وعقلية المرأة المغولية ومدى تأثر المرأة المغولية بفكر وعقائد ومبادئ الديانات الأخرى سواء كانت الاسلام أو المسيحية ، وهى الديانات التى هذبت من سلوكيات المغول رجالاً ونساءاً بصفة خاصة ، وبدأت تضعهم فى مصاف الشعوب أو الأمم المتقدمة المتحضرة وتخرجهم من حالة البداوة والوثنية والهمجية التى كانوا عليها .

ب- موقف أورقنة خاتون من الحرب الأهلية بين قوبيلاى وأريق بوقا منذ عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م :

على أن هذا الازدهار والاستقرار الذى تمتع به ألوس جغتاى تحت حكم تلك المرأة العاقلة أورقنة خاتون لم يستمر طويلاً ، فبعد وفاة منكوقاآن عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ، كان ذلك مؤشراً لبداية ضعف امبراطورية جنكيزخان ، ولأنه يحدد قيام أول حرب أهلية فى تاريخ الامبراطورية المغولية بين أبناء تولوى : قوبيلاى الابن الأكبر ، وأريق بوقا الابن الأصغر ، وهى الحرب التى تناولها مؤرخ المغول بتفاصيل

---

(١) سنعرض لهذه الأمور بالتفصيل فى الجزء الخاص بتأثير المرأة المغولية الحضارى .

ضافية ، وأفرد لها حيزاً كبيراً من كتابه . ولما لم يكن من شأننا أن نخوض فى تفاصيل ذلك الصراع الأسرى بين الأخوة الأعداء : قوبيلاى وأريق بوقا [١] ، خاصة وأنه قد يبعدنا عن الموضوع الرئيسى للدراسة ، إلا أننا سنسلط الأضواء على موقف المرأة المغولية (أورقنة خاتون) من ذلك الصراع الأسرى أو الحرب الأهلية بين الأخوة الأعداء .

وبدأ ذلك الصراع عندما كان منكو يقوم بحملاته على الصين ، وكان ينوب عنه فى حكم المغول أخ آخر له يسمى أريق بوكا (بوقا) ، وكان منكو يود أن يخلفه أريق بوقا على عرش المغول . فلما مات منكو أعلن أريق بوقا نفسه خاناً أعظم ، ولكن قوبيلاى الذى كان قد تشبع بروح الصينيين ، واتصل بهم اتصالاً وثيقًا ، وضمن وقوف الجيوش الصينية إلى جانبه ، رفض النزول على قرار أخيه ، وفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م عقد مجلسًا خاصًا فى مدينة مينك - فو إحدى مدن الصين الشمالية ، وأعلن خلع أخيه واعتبره متمرداً وخارجاً عليه ، ونصب نفسه امبراطوراً على المغول ، وكان وقتذاك فى السادسة والأربعين من عمره، واتخذ من بكين عاصمة له وأطلق عليها اسم خان باليغ أى مقر الخان[٢] .

على أن كبار رجال الدولة فى قراقورم لم يقروا مثل هذا التصرف من قبل قوبيلاى ، واعتبروه خارجاً على تقاليد المغول وقوانين الياسا ، لأنه اعتبر نفسه بذلك خليفة لأباطرة الصين السابقين وليس خليفة للجد الأعلى چنكيزخان . ويذكر أحد المؤرخين المحدثين أنه باعلان قوبيلاى

---

(١) للإستزادة عن ذلك الصراع الأسرى بين قوبيلاى ، وأريق بوقا راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٤١ - ٢٦٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٤٨ - ٢٤٩ .

نفسه قاآناً فى الصين يعتبر ايذاناً بالتخلى عن قوانين چنكيزخان القاسية[١] .

وكيفما كان الأمر ، فقد أعلن كبار رجال الدولة تأييدهم لتوليه أريق بوقا عرش الخانية . وبذلك ولأول مرة عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م يتم انتخاب قاآنين فى وقت واحد هما: قوبيلاى بالصين، وأريق بوقا بمنغوليا. وانقسم المغول أنفسهم إلى فريقين أو معسكرين : واحد يؤيد قوبيلاى ، والثانى يؤيد أريق بوقا [٢] . وكانت حاكمة آلوس جغتاى أورقنة خاتون تقف إلى جانب أريق بوقا باعتباره صاحب الحق الشرعى فى الخانية[٣] .

---

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران إز إستيلاء مغول تاإعلان مشروطيت ، جلد أول ، تهران ١٣٤٧ هـ . ش ، ص١٦٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٤٧ ، ويلاحظ أن هولاكو وبركة ، أقوى شخصيتين فى بيت چنكيزخان ، لم يشتركا فى هذا الصراع بين الأخوة الأعداء وإن كان أريق بوقا أشاع بأنهما يؤيدانه . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٤٨ ، ٥٠ . ويؤيد ذلك برتولد : تركستان ، ص٦٩٩ .

ويلاحظ إننا إعتمدنا تماماً فى إستقاء هذه المادة التاريخية حول تلك الحرب الأهلية المغولية على رشيد الدين لأنه المؤرخ الوحيد الذى إنفرد بذكر هذه التفاصيل الكثيرة حول ذلك الموضوع . ومن المهم جداً أن نذكر أن رشيد الدين فى روايته كان متحيزاً تماماً لقوبيلاى وكان يؤيد الفريق الذى يؤيد قوبيلاى ، فى حين أنه لم يكن لديه شعوراً طيباً تجاه أريق بوقا وأنصاره ، وظهر ذلك بوضوح فى رواياته ، ولذلك كان علينا أن نتخذ جانب الحذر والحيطة عند التعرض لروايته وذلك بتحليلها وتمحيصها ، وتمثل ذلك عند ذكره لموقف هولاكو وبركة من ذلك الصراع فهو يستخدم عبارة « وأشاعوا (أى أنصار أريق بوقا) أن هولاكو وبركاى (بركة) والأمراء الأنجال قد إتفقوا على إعتلاء أريق بوقا عرش القاآنية ، ويقول رشيد الدين معلقاً على ذلك بأن أريق بوقا وأنصاره «نسجوا عبارات مموهة ، وسجلوها ثم أرسلوها » . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٤٨ .

على أية حال ، فقد بدأت سلسلة من الحروب الأهلية الدامية بين جيوش قوبيلاى وأريق بوقا ، وفى إحدى مراحل تلك الحروب أرسل قوبيلاى حملة للاستيلاء على ألوس جغتاى ، وانتزاعه من أيدى أورقنة خاتون ، الذى أدرك أن بقاءها بجانب أريق بوقا ومعها العديد من أنصار الأسرة المالكة من الممكن أن يرجح كفه كربوقا فى الصراع معه ، ولذلك أدرك قوبيلاى أهمية دور أورقنة خاتون فى صراعه المرير مع أخيه الأصغر بوقا ، وأرسل لذلك حملة بقيادة أحد رجاله ويسمى أبيشقه أو أبيشغه (١) ابن بورى ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل على أيدى أنصار أريق بوقا. ويبدو أن الحملة التى أرسلها قوبيلاى لضم ألوس جغتاى إليه ، نبهت أريق بوقا إلى أهمية تدعيم وتقوية ألوس جغتاى فى صراعه مع أخيه قوبيلاى، وخشى ألا تتمكن أورقنة خاتون من مواجهة أى حملات أخرى قادمة موجهة من قوبيلاى على ألوس جغتاى ، ولذلك كلف أحد رجاله الثقات وهو أمير من نسل جغتاى يسمى ألغو بن بايدار الابن السادس لجغتاى(٢) ؛ بأن يذهب إلى تركستان ليضمن الاستيلاء على هذه المناطق ، وليغلق الطريق على هولاكو وبركة إذا ما فكرا فى تأييد المطالب الأكبر بالعرش أو يزودانه بالمؤونة والامدادات ، كما كلفه أيضاً بالزواج من أورقنة خاتون ليحكم الدفاع عن المناطق الداخلة فى ألوس جغتاى . ويبدو أن أورقنة خاتون وافقت على أوامر أريق بوقا خاصة وأن ابنها مباركشاه كان لا يزال صبياً ، وكان غير قادر على الدفاع عن هذه المناطق التى تمثل جبهة حيوية وهامة بالنسبة لأريق بوقا ، فوق أن قوبيلاى كان قد منع وصول الميرة من الصين إلى منغوليا ، فحدثت من

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٠ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٠ .

جراء ذلك قحط وغلاء شديدين بتلك البلاد ، لهذا كان ضرورياً أن ينظم نقل الغلة من تركستان إلى منغوليا (١) .

وانطلق ألغو لتحقيق كل ما كلفه به أريق بوقا ، فذهب إلى كاشغر واستطاع أن يجمع حوله أفراد أسرة جغتاى وأنصارهم ، بحيث وصل عددهم إلى ما يقرب من مائة وخمسين ألف فارس (٢) . واستطاع أن يمد سلطانه على مناطق لم تكن فى يوم من الأيام جزء من الأملاك الجغتائية مثل خوارزم وأفغانستان ، وتأكد سلطان ألغو على هذه المناطق . غير أن ألغو كان يعمل بكل طاقته من أجل مصلحته الخاصة ، ولم يكن فى نيته على الاطلاق أن يقوم بتنفيذ رغبات وأوامر أريق بوقا ، وعظم شأنه ، وسرعان ما أعلن التمرد والعصيان على أريق بوقا (٣) ، وفى النهاية أعلن الحرب جهرة على أريق بوقا وقتل مبعوثيه ووضع يده على الأموال التى جمعوها ووزعها على جنده (٤) . وأمام هذه التطورات المفاجئة والخطيرة ، اضطرت أورقنة خاتون إلى أن تترك ألوس جغتاى ، ورفضت الزواج من ألغو ، وذهبت يصحبها وزيرها مسعود بيك لتشكو إلى أريق بوقا بما فعله ألغو وظلت مقيمة فى قراقورم (٥) ، منتظرة نتائج الصراع بين أريق بوقا وبين قائده المنشق عليه ، ثم بينهما وبين قوبيلاى من ناحية أخرى .

على أن سلسلة الهزائم المتتالية التى منى بها أريق بوقا أمام جيوش

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٠ ، ٢٥٠ .

(٢) هكذا ذكر رشيد الدين . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٥٠ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٠ ، ٢٥٠ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥١ ، ٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٠ ، ٢٥٤ .

قوبيلاى فى الوقت الذى تخلى عنه الكثير من أنصاره وقادة جيشه ، بسبب تهوره الشديد وقسوته فى التعامل مع قادته وبطشه بالعديد منهم . وأصبح فى موقف لا يحسد عليه ، ولهذا اضطر إلى العمل على استمالة ألغو بن بايدار ، واستخدم فى ذلك أورقنة خاتون كورقة رابحة فى استمالة ألغو ، فطلب منها أن تذهب كمبعوث من ناحيته إلى ألغو لتهدأ ثائرته وتستميله ، بل وطلب منها الزواج منه ، وبالفعل نجحت مهمة أورقنة خاتون وتزوج ألغو منها وشملها برعايته وكرمه ، وجعل وزيرها مسعود بيك صاحباً للديوان فى ألوس جغتاى ، ورغم ذلك فإنه سيطر سيطرة تامة على عرش ألوس جغتاى [1] .

وقد يبدو من رواية رشيد الدين حول موقف أورقنة خاتون من ألغو وموافقتها على الزواج به أنه نوع من الضعف أو الاستسلام من جانبها ، إلا أنها كانت من الذكاء والدهاء بمكان ، فالمرجح أنها وافقت على الزواج من ألغو ، بعد أن رأت أن نجم أريق بوقا ، بعد سلسلة الهزائم والانتكاسات التى منى بها ، على وشك الأفول ، فى الوقت الذى عظم فيه شأن ألغو ابن بايدار سياسيًا وعسكريًا ، وسيطر على ممتلكاتها السابقة ، فى الوقت الذى فرت فيه هى وابنها من تلك المملكة خوفاً على نفسها وعلى حياة ابنها ، ولذلك فكرت فى الاقتران بألغو لكى تعمل بعد ذلك على استعادة عرشها وعرش ابنها مباركشاة ، الذى بدأ يشب عن الطوق فى ذلك الوقت ، ولذلك ظلت سنة كاملة منذ عودتها عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ - ١٢٦٣م حتى وفاة ألغو عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ - ١٢٦٤م ، تعمل على استمالة القادة والوزراء والأمراء والجند ، بحيث ما إن توفى ألغو سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣ - ١٢٦٤م ، وبموافقة الأمراء والوزراء وقادة الجيش

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥١ ، ٢٥٧ .

والجند ، ولت ابنها مباركشاة كحاكم أوحد على ألوس جغتاى [1] ، فى الوقت الذى أسلم فيه مباركشاة [2] ، لينال تأييد الطوائف الاسلامية المختلفة فى كل أنحاء ألوس جغتاى . وبذلك تمكنت تلك المرأة الداهية أورقنة خاتون من أن تستعيد ملكها الضائع وعرشها وعرش ابنها ثانية ، وتولى ابنها الحكم على أسنة رماح الجيش الجغتائى ، وتوطدت أقدامها هناك رغم أنف قوبيلاى وذلك عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣م [3] ، حيث عملت أورقنة وابنها خلال تلك الفترة وحتى وفاة أورقنة ، على نشر العدل ورفع الظلم عن رعايا الألوس من ظلم العسكر المغولى فى تلك الفترة المضطربة [4] .

ويؤكد قوة أورقنة خاتون فى استعادة عرش ألوس جغتاى والاحتفاظ به وسط هذه الفترة المضطربة المليئة بالقلاقل والفتن بين الأخوة الأعداء قوبيلاى ، وأريق بوقا لمدة عام كامل (٦٦٣ – ٦٦٤هـ / ١٢٦٣ – ١٢٦٤م) أن قوبيلاى نفسه ، عندما استقرت له الأمور فى القاآنية كانت لديه الرغبة بأن يحكم ألوس جغتاى براق بن ييسون توا الابن الثالث لمواتوكان ، ولم يكن راضياً عن اعتلاء مباركشاة العرش ، ونصب له غريماً ممثلاً فى شخص ابن عمه براق هذا [5] . ولهذا وحرصاً على عدم استثارة حفيظه كل من أورقنة خاتون ومباركشاة ، خاصة بعد أن

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٥١ ، ٢٥٧ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ٢٥١ .

(٣) هكذا أكدت رواية رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥١ – ١٥٢ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٥١ – ١٥٢ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٢ . ويفضل علماء التركيات نطق إسم هذا الأمير براق ، بفتح الباء والبعض ينطقه براق بضم الباء . راجع مناقشة ذلك فى برتولد : تركستان ، ص٧٠٦ – ٧٠٧ حاشية ٢٣٧ .

توطدت أقدامها هناك وحظيا بتأييد كل رعاياهم من المسلمين وغير المسلمين ، نظراً لعدالتهم ورفع الجور عنهم ، فإنه أصدر يارليغًا بأن يحكم الألوس كل من مباركشاة وبراق مناصفة ، ولكن براق عندما وصل إلى بلاد آل جغتاى ، واستيقن من أن مركز كل من أورقنة وابنها بلغ حد الثبات وقوى شأنهما خشى من اظهار المرسوم [1] ، ورأى أن الحكمة تقتضى منه ألا يبرزه إلا فى الوقت المناسب ، وجاء هذا الوقت عندما توفيت أورقنة خاتون عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٤م ، وفقد مباركشاة نصيراً قوياً ، فاستطاع براق بعدها أن يطيح بمباركشاة من عرش آل جغتاى ، ويصير هو الحاكم المطلق [2] .

وبوفاة أورقنة خاتون طويت صفحة لامرأة مغولية تمتعت بشخصية قوية ودهاء ومكر سياسيين ، استطاعت أن تحتفظ بعرشها بل وتستعيده بعد أن فقدته فى خضم الصراعات المريرة والدامية بين أبناء الأسرة المغولية الحاكمة ، واستطاعت أن تحفر لنفسها اسمًا فى سجل النساء المغوليات ذوى الكفاءة والمقدرة السياسية ، ولم يقل دورها بأى حال من الأحوال عن دور سرقويتى بيكى أو توراكيناخاتون ، بل يمكن القول أن دورها ، طبقاً لما ذكرناه استناداً على مصادر المغول ، كان يضارع بل ويفوق دور كل من سرقويتى بيكى ، وتوراكيناخاتون ، وهى من السيدات المغوليات القلائل اللائى أغفل المؤرخون القدامى والمحدثون دورهن الحيوى فى تلك الأحداث العارمة التى شهدتها الامبراطورية المغولية بعد وفاة منكوقاآن .

•

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٥٢ . وتذكر رواية رشيد الدين أن براق هذا جعل مباركشاة فيما بعد قائداً لحرسه الخاص .

دور نساء أخريات : كلميش آقابنه قوتوقتو ، وكوكجين خاتون (القرن ٨ هـ / ١٤م) :

وهناك مثال آخر لامرأة لعبت دوراً سياسيًا كبيراً وهي من سلالة تولوى خان الابن الرابع لچنكيزخان ، وكاد اسمها أن يذهب في غياهب النسيان ، ولكننا ارتيأنا أن نخصص لها حيزاً في دراستنا هذه ، وهي كلميش آقابنه قوتوقتو حفيد تولوى خان [١] . وكانت زوجة سالجيداي كوركان من قبيلة قنقرات ، توفى زوجها سالجيداى عام ٧٠١ هـ / ١٣٠١- ١٣٠٢م ، وعاشت بعده فترة طويلة ، وكانت معاصرة لمؤرخ المغول رشيد الدين [٢] . وقد وجدت الاحترام والتقدير الكبير من قبل توقتا وبقية أمراء ألوس جوجي خان ، وكانت على علاقات طيبة مع السلطان أبو سعيد ايلخان مغول فارس ، وكانت توفد إليه الرسل كل فترة تخبره بالأحداث التى تقع في ألوس جوجي خان [٣] . واستطاعت بما لديها من حنكة وذكاء وخبرة سياسية كبيرة من أن توطد العلاقات بين توقتا وبقية أعقاب جوجي خان ، وأفراد أسرة تولوى ، ولتحول بذلك دون وقوع الفتن والخصومات بين الجانبين [٤] ، ولتبعد بذلك شبح حرب أهلية ثانية كانت على وشك الوقوع بين أسرتي جوجي وتولوى ، كما أنها حالت أيضاً دون وقوع حرب أهلية ثالثة بين أبناء عمها في الجيش ، مع مونككا تيمور ملك ألوس جوجي خان من جهة ، ومع قوبيلاى قاآن المغول [٥] من جهة ثانية .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦١ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦١ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦١ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦١ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٦١ . ويذكر أن قوبيلاى حكم ما يزيد عن =

وهكذا أدت كلميش آقا خدمة جليلة للامبراطورية المغولية عندما تمكنت بما لديها من مقدرة ودبلوماسية سياسية ، من أن تحول دون نشوب حروب أهلية عديدة بين أفراد الأسرة المغولية ، وهو الأمر الذى لم تتمكن أياً من نساء المغوليات الأخريات من الأسرة الحاكمة أن تفعله . ولذلك لا يمكن أن نغفل دور هذه المرأة فى دراستنا هذه .

ولدينا أيضاً مثال لاستمرار دور المرأة المغولية كوصية على العرش مما يؤكد احترام وتقدير المغول للمرأة إلى حد أنهم كانوا يجلسونها على العرش قانوناً بعد وفاة زوجها ، مثلما حدث مع أرملة باتو وأكبر زوجاته براقجين خاتون ، عندما أصدر منكوقاآن يارليغاً بأن يتولى إدارة عرش الأوردو الذهبى ، وأن تكون فى نفس الوقت وصية على أولاغجى الحدث الذى يرى فيه جوينى ابناً لسرتاق [1] ، بينما يجعله رشيد الدين ابناً لباتو [2] .

وثمة مثال آخر يؤكد مدى قوة المرأة المغولية وتأثيرها الكبير فى اختيار القاآن الأعظم للمغول ، ويتمثل ذلك فى دور كوكجين خاتون فى اختيار ابنها وحفيد قوبيلاى المسمى تيمورقاآن المعروف باسم أولجايتو [3] . وكانت كوكجين خاتون أكبر زوجات ابنه جيم كيم بن قوبيلاى قاآن . ويصفها رشيد الدين بأنها امرأة عاقلة جداً . وكان القاآن قوبيلاى يفضلها دون النساء الأخريات من زوجات ابنه جيم كيم ، ولهذا اتخذها مستشاراً له ، فكان يستشيرها فى كل أمور الدولة السياسية والادارية ، ، وكانت هى

– ثلاثة عقود من الزمان (٦٥٨ – ٦٩٣هـ / ١٢٦٠ – ١٢٩٤م) .

(١) أورسراق . الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٤٥ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٤ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١٢ .

المرجع للحكم فى كل الحالات ، [1] . ويبدو أن كوكجين خاتون كانت على نفس شاكلة سرقويتى بيكى ، فعندما توفى قوبيلاى عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣م ، أرسلت أمه ابنه جيم كيم إلى ابنها تيمور ليجلس على عرش جده ، وظلت كوكجين تصرف مهام الملك ومصالحه لمدة عام كامل حتى وصل تيمور قاآن عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤م .

وسرعان ما عقد مجلس القوريلتاى للاقتراع على ترشيح وانتخاب تيمور قاآناً جديداً ، إلا أنه سرعان ما ظهر داخل مجلس الشورى المغولى، النزاع بين تيمور ، وأخيه الأكبر كملا ، الذى نازعه الأمر وطالب بأحقيته فى العرش المغولى [2] . وكان هذا النزاع بين الأخوة الأعداء كفيلاً بتقويض حق تيمور فى عرش القاآنية ، إلا أن كوكجين خاتون استطاعت معالجة هذا الموقف بكياسة ودهاء كبيرين ، فقالت « أن قوبيلاى أمر أن يجلس على العرش أكثرهما دراية بأحكام چنكيزخان » ، وطلبت إلى كل منهما أن يتحدث بما يعرف ليحكم الأمراء بينهما . ولما كان تيمور بليغاً وفصيحاً ، فقد أخذ يشرح الأصول والقوانين الچنكيزخانية بفصاحة ، فأيد المجتمعون والأمراء جلوسه على العرش [3] ، وليكون قاآن جديد [4] على المغول من عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤م إلى عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٧م . وليرضخ كملا بهذا الحكم .

وبذلك دلت هذه المرأة على قوة شخصيتها ودبلوماسيتها وكفاءتها

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٩٤ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١٣ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١٣ - ٣١٤ .

(٤) من المهم للغاية أن القاآن الأكبر للمغول أصبح يقيم فى بكين كعاصمة للدولة المغولية منذ عهد قوبيلاى قاآن .

فى آن واحد لأنها حالت دون تفاقم هذا النزاع بين الأخوين والذى لولا حنكتها ودهائها ، فلربما شهدت الامبراطورية المغولية حرب أهلية أخرى وتحول الأخوين إلى الأخوة الأعداء مثلما حدث من قبل بين قوبيلاى وأخيه الأصغر أريق بوقا .

على أن دور كوكجين خاتون لم يقف عند مجرد رفعها ابنها تيمور كقاآن جديد على العرش فقط ، بل استمرت تحكم إلى جواره ، كما أكدت روايات المغول ، وكان يستشيرها فى كل أمور الدولة لمعرفته مدى حصافتها وكفاءتها . وظهر معدن هذه المرأة فى ذلك الموقف الذى تمثل فى المواجهة بين ابنها القاآن تيمور والأمير آنندة بن مينكقلان الابن الثالث لقوبيلاى قاآن (١) . وكان آنندة هذا قد منحه تيمور قيادة الجيش الذى كان لوالده مينكقلان ، وكذلك ولاية تنكقوت وهى بلاد كبيرة ممتدة واسعة ، يقال لها باللغة الخطائية خوشن ومعناها وادى المغرب العظيم لأنها كانت تقع على الجانب الغربى لاقليم الخطا (٢) .

وقد اعتنق آنندة الاسلام وتعلم القرآن ، وصار يكتب الخط العربى بجودة فائقة ، ودائماً يقضى أوقاته فى الطاعة والعبادات ، وكان جيشه المغولى تحت أمرته وعدده مائة وخمسين ألف جندى أدخل أكثرهم الاسلام . ولكن أحد الأمراء ذهب إلى القاآن يشكوه إليه ، وأنه يلزم المسجد دائمًا ، ويؤدى الصلاة والصوم ، ويعكف على قراءة القرآن ، وقد ختن أكثر أطفال المغول ، ودخل أغلب جلوده فى الاسلام (٣) ، . فغضب القاآن لذلك بشدة وأنكر على آنندة ذلك ، وأصدر أمره بمنعه من تأدية

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١٥ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١٥ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١٦ .



الطاعات والعبادات الاسلامية ، وطلب منه السجود للأصنام واحراق البخور فى معابد الأصنام [1] . ورفض آنندة تنفيذ أوامر القاآن تيمور ، فحبسه . وفى المناظرة التى جرت بينهما والتى حضرتها كوكجين خاتون ، أدركت أن ذلك الموقف بين الاثنين يتطلب الحكمة والدبلوماسية خاصة وأن مركز آنندة فى تنكقوت كان قوياً ، وله أنصار كثيرين من المسلمين ، وأن اجباره على ترك الاسلام سيجر على القاآن الكثير من المتاعب داخل الامبراطورية المغولية ، فى وقت لم تكن أقدام تيمور قد توطدت فى منصب القاآنية وله أعداء كثيرين . وأعلمت كوكجين القاآن بكل هذه الأمور ونصحته بالتريث قائلة ، لقد جلست على العرش منذ عامين ، ولم يستقر لك الملك بعد ، ولآنندة جنود كثيرون ، وجميع هؤلاء الجند ، وأهل ولاية تنكقوت مسلمون ، ويستنكرون منك هذا الموقف ، وربما يغيرون قبولهم فنكون قريبين من بلاد الأعداء ، فليس من المصلحة اجباره على ترك الاسلام ، وأن المصلحة تقتضى تركه على اسلامه [2] ، . ولما كان تيمور يعلم مدى حصافة وبعد نظر أمه ، استجاب لصوت العقل من قبلها ، وعرف أن تلك النصيحة فى محلها ، فخلى سبيل آنندة ، وطيب خاطره واستماله ، وخلع عليه ، وأرسل ليكون على رأس الجيش وحاكماً على ولاية تنكقوت ، منحه هذه الولاية [3] .

وهكذا وبفضل تلك النصيحة من كوكجين خاتون وتوسطها للصلح بين آنندة وتيمور ، أبعدت كوكجين شبح حرب أهلية أخرى بين المغول

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣١٦ .

(٢) رشيد الدين : جمع التواريخ ، ص٣١٧ .

(٣) رشيد الدين : جمع التواريخ ، ص٣١٧ .

من الأسرة الحاكمة ، كما أنها حالت دون قيام المسلمين والجند فى تلك الولاية بثورات وقلاقل لا يعلم مداها إلا الله . وتوضح الروايات أيضاً أن كوكجين رأت أن مصلحة ابنها وعرشه يتطلب منها أن تقف بجوار آننده وتؤيده فى موقفه لأنها تعلم مدى مكانته وقوته فى الألوس الخاص به ، وتمكنت بذكاءها من انقاذ ابنها من موقف حرج كان سيضع نفسه فيه ولا يحسد عليه بعد ذلك .

دور دوقوزخاتون زوجة هولاكو : تأثيرها الكبير فى توجيه السياسة الداخلية والخارجية لايلخانيه مغول فارس أثناء حكم هولاكوخان (٦٥٤ - ٦٦٣هـ / ١٢٥٦- ١٢٦٥م):

- ولدينا نموذج فريد لامرأة فريدة من نوعها فى تاريخ المغول بصفة خاصة وتاريخ مغول فارس بصفة خاصة ، بحيث جعلتنا نتوقف أمامها طويلاً ، خاصة وأن زوجها هولاكوخان مغول فارس ، الذى كان اسمه يمثل صورة للرعب والفزع فى قلوب الشعوب فى بلاد فارس والعراق والشام ، قد أفتتن بها ووقع تحت تأثيرها لما لها من شخصية قوية جذابة ، فكان يأنس برأيها ويستشيرها فى عظائم الأمور ، بل بلغ من شدة تأثيرها عليه أنه كان بمثابة دمية فى يدها تحركها كيف تشاء ، وقد أسلم قيادة لها ، وكانت تتدخل فى كل شئون ايلخانية فارس فى الداخل والخارج ، كما أن وجودها بجوار هولاكو فى الحكم كان يمثل نكبة بل كارثة وقعت على رؤوس المسلمين ، ليس فقط داخل الامبراطورية المغولية ، بل أيضاً فى بلاد فارس والعراق وبلاد الشام . وكان وجودها يمثل العصر الذهبى الثانى للنصارى داخل الامبراطورية المغولية بفارس ، وخارجها . وكانت هى المحرض الرئيسى لحملات هولاكو على العراق والتى أدت إلى اسقاطه بغداد وتدمير الخلافة العباسية ، ثم حملاته على بلاد الشام ومحاولته أيضاً غزو مصر ، فيما يعرف بالحرب الصليبية

المغولية ضد المسلمين فى الشرق الأدنـى على النحو الذى سنوضحه بعد قليل ، وبحيث يمكن أن نطلق عليها بحق اسم المرأة الرهيبة [١] ، وتلك المرأة هى دوقوزخاتون [٢] ، زوجة هولاكوخان فارس الشهير [٣] .

وتنتمى دوقوزخاتون إلى قبيلة الكرايت ، ولم تختلف عن قومها فى تعلقها بالمسيحية النسطورية . وإذ اعتنق الكرايت المسيحية منذ زمن بعيد ، وتمسكت بعقيدتها وتعصبت لها بشدة أكثر من تعصب المسيحيين أنفسهم فى الشرق والغرب لمسيحيتهم . وحرصت دوقوزخاتون على حماية المسيحيين الذين صار لهم ، أثناء حياتها ، وضعاً ممتازاً وعاشوا العصر الذهبى الذى عاشوه من قبل أيام توراكيناخاتون . وعلى الرغم من أن جباراً عنيداً فى الأرض مثل هولاكو كان يميل إلى البوذية ، إلا أنه تحت تأثير زوجته ، ومن أجل التقرب إليها بمجاملة أبناء دينها [٤] ، ولارضاءها ، غمر هولاكو المسيحيين بأفضاله وبكل مظاهر

---

(١) يطلق عليها شبولر لقب الزوجة الموهوبة . شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٧ .

(٢) هكذا ذكرها رشيد الدين : جامع التواريخ ، الجزء الأول ، المجلد الثانى (الإيلخانيون) . نقله إلى العربية صادق نشأت ، د. فؤاد الصياد ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص١٤٢ . ويوافق على رسم إسمها هكذا شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٧ . فى حين ذكرها الأستاذ الدكتور الباز العرينى تحت إسم طقزخاتون . د. العرينى : المغول ، ص٢١٢ .

(٣) كانت دوقوزخاتون من قبل زوجة لأبيه تولوى ، وتنتمى إلى قبيلة الكرايت وكانت حفيدة وانج خان ملك الكرايت فى شرق منغوليا ، (وهو برستريوحنا فى الأسطورة التى ذكرها آنفًا) ثم آلت من بعده إلى إبنه هولاكو ، متزوج منها جرياً على عادة المغول الذين كانوا يتزوجون من نساء آبائهم . رشيد الدين : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ج١ ص١٤٢ .

(٤) فضلاً عن وجود دوقوزخاتون المسيحية زوجة هولاكو ، كانت هناك عدة أميرات مسيحيات نسطوريات ، كما أن زوجات آباقا كانت أميرة بيزنطية إحتفظت بعقيدتها الأرثوذكسية فى تبريز .

التقدير [١] ، فأقام كنائس جديدة فى جميع أنحاء الامبراطورية (مملكة فارس المغولية) ، وأنشأ عند مدخل دار دوقوزخاتون كنيسة تقرع بها الأجراس داخل البلاط الملكى . وكان هولاكو غالباً ما يشترك فى الأعياد المسيحية بنفسه ، ويحضر القداس . وأوقف الأوقاف على الكنائس ، وفضل المسيحيين على المسلمين فى المعاملة [٢] ، كما صارت القداسات والصلوات يؤديها مع القسس والشمامسة بانتظام ، وأنشأ مدارس يتردد إليها الأطفال بكامل حريتهم ، وكل من قدم من قبل المسيحيين على اختلاف لهجاتهم من رجال الكنيسة نعموا فى حياتهم بالهدوء والأمن . وكل من التمس السلام والأمن حصل عليه من قبل دوقوزخاتون وهولاكو ، وعاد مثقلاً بالهدايا . واعتنقت المسيحية أيضًا على المذهب النسطورى ابنه أخت دوقوزخاتون ، وهى توقتى خاتون ، وكانت من زوجات هولاكو أيضاً [٣] .

وإذ اعتبر هولاكو نفسه نصيراً وحامياً للمسيحية بتأثير من زوجته دوقوزخاتون النسطورية ، يذكر شبولر بأنه بات واضحًا أن المسيحية بشكلها النسطورى سوف تنتصر فى النهاية على بقية المذاهب الأخرى ،

---

(١) كان الشاميون والبوذيون يؤلفون الجانب الأكبر من سكان الشطر الشرقى فى إمبراطورية المغول ، فى حين أن المسيحيين من النساطرة واليعاقبة سواء كانوا من الأرمن أو الكرج، توافر عددهم فى إيران بعد دخولها فى حوزة المغول . وفى حديث لهولاكو مع جماعة من رجال الدين من الأرمن والكرج عام ١٢٦٤ ، أشار أن عواطفه وميوله نحو المسيحية ، أقامت الهوة بينه وبين عمومته من خانات جنوبى روسيا والتركستان (خانيتى القبجاق وجغتاى) نظراً لميلهم إلى المسلمين . د. العرينى : المغول ، ص٢١٢ .

(٢) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٥٨ ؛ أيضاً د. العرينى : المغول ، ص٢١٢ .

(٣) د. العرينى : المغول ، ص٢١٢ .

وكان الأمل وطيداً فى روما أن تقتنع الكنيسة النسطورية بالانضمام فيما بعد إلى الكنيسة الكاثوليكية العالمية [1] . ولم تكتف دوقوزخاتون بالتأثير على هولاكو بهذه الكيفية ، بل أحاطت نفسها وهولاكو بحاشية من المسيحيين ، واتخذت لها مستشاراً كان جاثليق أرمينى يدعى وارتاق [2] .

وحول تأثير دوقوزخاتون ، تلك المرأة الرهيبة ، فى مجال السياسة الخارجية لايلخانية مغول فارس ، وفى سير الحروب الخارجية لزوجها هولاكو ، فإن ذلك يبدأ بتلك الرسالة التى أرسلها منكوقاآن لأخيه الأصغر هولاكو ، وكلفه فى تلك الرسالة بالتخلص نهائياً من السلطتين الروحيتين فى فارس وهما امارة الاسماعيلية فى مازندران ، والخلافة العباسية فى العراق ، فضلاً عن غزو بلاد الشام ومصر . وكان من النصائح التى بذلها منكو لأخيه هولاكو أن يحرص على الاستئناس برأى زوجته دوقوزخاتون ويشاورها فى جميع القضايا والشئون ، وأن يقبل رأيها وينفذه [3] . وبذلك لم يجد هولاكو نفسه واقعاً تحت تأثير زوجته فحسب فيما يتعلق بسياسته الداخلية وموقفه تجاه المسلمين والمسيحيين فى ايلخانية فارس ، بل أن منكوقاآن يأمره بتنفيذ أوامر ونصائح زوجته لأن منكو ، على ما يبدو ، كان يعرف مدى قدرة ودهاء تلك المرأة الموهوبة

---

(١) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٦٥ .

(٢) عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، جلد أول ، ص١٩٨ . وعن أهمية الكنيسة النسطورية ومكانتها فى بلاد فارس زمن المغول راجع Grousset, R., L'empire des steppes, Paris 1948, p. 445 .

(٣) راجع هذه الرسالة فى رشيد الدين : جامع التواريخ ، الجزء الأول ، المجلد ٢ ، ص١٤٢ - ١٤٤ .

على حد قول شبولر (١) . ويؤكد محاباة هولاكو لزوجته الرهيبة ، أنه وضع على رأس جيوشه الضخمة الخارجة لتوطيد سلطة المغول بهضبة ايران والاستيلاء على معاقل الاسماعيلية ، أحد القادة المسيحيين المغول وهو كتبغا ، المغولى النايمانى ، الذى يدين بالنسطورية ، وكان السند الأكبر لهولاكو فى غزواته فيما بعد فى العراق وبلاد الشام ثم محاولته غزو مصر فيما بعد (٢) .

وكيفما كان الأمر فقد صحب هولاكو فى حملاته فى فارس والعراق إلى جانب زوجته دوقوزخاتون ، زوجتين آخريين ولديه الكبيرين (٣) وعندما وصلت جحافل المغول بقيادة هولاكو إلى بغداد وحاصرتها تمهيداً لاسقاطها واسقاط الخلافة العباسية ، بذل الخليفة العباسى المستعصم بالله جهوداً كبيرة لاثناء المغول وقوادهم هولاكو وكتبغا بالتخلى عن حصار بغداد ، ولما كان يعلمه من وجود دوقوزخاتون فى معية هولاكو ومدى تأثيرها القوى فى اقناع هولاكو بترك حصار حاضره الخلافة العباسية ، ونظراً لما كان للمغول الترك والنساطرة من نفوذ عند هولاكو ، أنفذ إليهم وزيرة الشيعى مؤيد الدين بن العلقمى ، وجاثليق المسيحيين النساطرة ماكيخا مندوباً عنه إلى هولاكو ، محاولاً استمالة دوقوزخاتون زوجته (٤) . على أنه ما من شيئ كان يثير عاطفة دوقوزخاتون ورحمتها أو عاطفة هولاكو . والمرجح أن دوقوزخاتون أقنعت هولاكو ألا يستجيب لسفارة الخليفة العباسى ، وأغرته باسقاط بغداد على الفور والتمثيل بأهلها من

---

(١) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٧ .

(٢) د. العرينى : المغول ، ص٢٢١ .

(٣) د. العرينى : المغول ، ص٢١٢ .

(٤) د. العرينى : المغول ، ص٢٢٢ .

المسلمين السنة بصفة خاصة [١] . وبسقوط بغداد فى أيدى المغول فى صفر عام ٦٥٦ هـ / فبراير ١٢٥٨م ، جرى الأذن للجند المنتصرة بنهب وسلب المدينة وارتكاب مذبحة مروعة داخلها ، وأشعلوا النيران فى معظم مبانى المدينة ، لا سيما فى المسجد الجامع ، ودور العباسيين وقبورهم ، وعصفت النيران بأجساد القتلى ، ولقى الخليفة المستعصم بالله مصرعه، وأصاب أفراد أسرته نفس مصيره [٢] ، وذلك وسط الفرحة الغامرة لهولاكو وزوجته . ونكاد نجزم أن دوقوزخاتون لعبت دوراً هاماً فى تحريض جنود المغول على نهب بغداد واستباحتها . وعلى الرغم من أن مؤرخ المغول رشيد الدين تغنى دائماً بأمجاد أسرة چنكيزخان ، وكان يلتمس لهم المبررات والأعذار فيما كانوا يرتكبونه من مذابح وسلب ونهب للمدن [٣] ، وهو المؤرخ الرسمى لهولاكو وأبنائه ، فلم يسعه إلا أن يردد بأن الخليفة المستعصم العباسى وحاشيته ماتوا شهداء فى سبيل الدين الاسلامى .

وفى رأينا ، وانطلاقاً من الروايات التى أكدت تأثير دوقوزخان القوى على هولاكو وعلى حملاته ضد المسلمين فى الشرق وتكريماً لها ،

---

(١) كان المغول لأسباب سياسية ، منذ البداية ، يميلون إلى المسيحية وإلى غير السنة من المسلمين .

(٢) راجع رسالة فتح أو واقعة بغداد المنسوبة إلى خواجة نصير الدين الطوسى والملحقة بكتاب جهانكشاى ، الترجمة العربية ، المجلد الثانى ص٣٦٣ – ٣٧١ : وراجع مناقشة د. فؤاد الصياد للروايات التى قيلت حول مقتل الخليفة المستعصم د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٧٢ – ١٧٦ معتمداً على مصادر ومراجع . أيضاً مناقشة ذلك فى مقال د. محمد عبد العال أحمد : أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية : أسبابها، وموقف حكام بعض الأقطار الإسلامية منها ، ط. ١٩٨٧، المقدمة .

(٣) راجع رشيد الدين : جامع التواريخ ، المجلد الأول والثانى ، الترجمة العربية ، غالبية صفحاته .

وتعظيماً لشأنها ، فإن الاستيلاء على بغداد وازالة الخلافة العباسية الذى شجعته حاشية هولاكو من المسيحيين والمسيحيين المغول النساطرة ابتداء من دوقوزخاتون وحتى كتبغا نويان ، يعتبر بمثابة حملة صليبية مغولية نسطورية ضد الخلافة العباسية فى العراق ، ويؤكد مدى تعصب دوقوزخاتون لدينها ومذهبها ، ويؤكد ذلك ما كان من اختيار بطريرك النساطرة مكيخا ، ليكون رسولاً من قبل الخليفة لهولاكو ودوقوزخاتون ، ونصادفه ضمن جيوش هولاكو من وحدات عسكرية من الكرج ، كانت أول من اقتحم أسوار مدينة بغداد ، واستخدمت فى ذلك كل أساليب العنف والقسوة فى تدميرها . وكان من الطبيعى أيضاً ألا يتعرض المغول بأذى ، وبناء على أوامر شخصية من دوقوزخاتون ، للسكان المسيحيين الذين لجأوا إلى الكنائس داخل المدينة والتى لم يصبها شيئ ، وكذلك لم يتعرضوا للشيعة الذين كان نصير الدين الطوسى (١) يتكلم باسمهم ويدافع عنهم (٢) .

وطرب المسيحيون فى آسيا لسقوط بغداد ، التى اعتبروها بابل الثانية ، وأشاد كتابهم بهولاكو ودوقوزخاتون ، فاعتبروهما قسطنطين وهيلينا ، وأن الله أعدهما للانتقام من أعداء المسيح وقد خص هولاكو بطريرك النساطرة بالأحباس المستمرة ، ومنحه من دور الخلافة ما اتخذه مقراً له وكنيسة لقومه (٣) . واستطاع المسيحيون أن يعيدوا بناء كنائسهم ، والشيعة مساجدهم فى معظم أنحاء الخلافة العباسية فى آسيا ، وأن يقيموا

---

(١) كان خواجة نصير الدين الطوسى أحد كبار الشيعة وكان يعمل كمستشار ووزير لهولاكو .

(٢) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٧ .

(٣) Newton, Travel and travellers, chap. IX; Grousset, L'empire des Steppes, pp. 432 - 433 . أيضاً د. العرينى : المغول ، ص٢٢٥ .

احتفالاتهم ومواكبهم الدينية العامة (١) ، وأصبحت لهم اليد العليا على المسلمين فى العراق وبلاد الشام ،وذلك بتأثير من زوجته الموهوبة دوقوزخاتون على حد تعبير شبولر (٢) .

وبذلك نجحت دوقوزخاتون فى ايقاظ النعرة الصليبية ضد المسلمين فى الشرق ، وأظهرت المغول العتاة على أنهم الثائرون لنصرة المسيحية ، كما يروى المؤرخ النسطورى كيرياكوس ، وأن الله أرسلهم من صحارى جوبى لتحطيم الاسلام ، فمنذ الذى يقول أن أولئك المبشرين النساطرة الفقراء ، والذين ارتحلوا فى القرن السابع الميلادى من سلوقية على نهر دجلة ، أو من بيت Abe للدعوة إلى الانجيل فى بلاد ساذجة فى تركستان الشرقية ومنغوليا ، سوف يجلون فى يوم من الأيام حصادهم ، وأضحى من بين المحاربين الذين صحبوا هولاكو ، الألوف من المسيحيين ، الذين يعتبرون من تلاميذ جاثليق كلديا (العراق) ، فربطوا من عقيدتهم ، صليب المسيحية النسطورية المنصوب على مقابر بشبك إلى لواء مغول چنكيزخان (٣) .

وطبقًا لهذا أيضًا يصح تبرير ما كان يعلقه الملك لويس التاسع من أمل فى بيت البرسترجون (القس يوحنا) Praster John وهو الملك المسيحى الأسطورى الذى يقيم فى أقصى أطراف المعمورة والذى حطم المغول امبراطوريته ، غير أنهم تبنوا رعاياه ومعتقداته (٤) . وما كان

---

(١) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٧ .

(٢) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٧ .

(٣) Grousset, L'empire des Steppes, p. 300 .

(٤) للإستزادة عن ذلك راجع : Newton, Travel, Chap. IX أيضًا د. سعد الغامدى : معركة قطوان ، مجلة العصور ، مجلد ١ ج١ ص٧٥ – ٩٤ .

لدوقوزخاتون من أهمية فى تلك الأحداث ، لم تغب عن بال المؤرخين ، فباعتبارها حفيدة آخر ممثلى القسيس يوحنا ، وزوجة هولاكو ، لا شك أنها هى التى أوحت إليه بتدمير الخلافة العباسية ، وها هى الحرب الصليبية المغولية والحرب النسطورية التى أعدها بعد أقل من سنتين من سقوط بغداد ، هولاكو وزوجته وقائده النايمانى النسطورى كتبغا ، بمساندة هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى (قيلقية) وبوهيمند السادس أمير أنطاكية ، تهيأت لغزو بلاد الشام على النحو الذى سنوضحه بعد قليل .

إن هذا الموقف لهولاكو وزوجته دوقوزخاتون ، أصبح له صدى عميق فى جميع أنحاء آسيا الغربية ، فأصبح النصارى فى سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى ينتظرون مجيئهما بفارغ الصبر حتى تتحقق آمالهم بتحسين أحوالهم ، ولهذا أسهموا بالسقوط السريع لكثير من المعاقل شمال بلاد ما وراء النهرين فى أيدى المغول [(١)] ، ولم تظهر أى مقاومة إلا من قلعة ميافارقين ، التى أبدت مقاومة ضارية مدة سنتين كاملتين [(٢)] ، بحيث لم يأت عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩م إلا وانفتح الطريق أمام الزحف الصليبى المغولى نحو البحر المتوسط .

إن دوقوزخاتون لم يتوقف طموحها عند حد اسقاط الخلافة العباسية واثارة النعرة الصليبية المغولية ضد المسلمين فى الشرق الأدنى فى ذلك الوقت ، بل انها عملت على اذكاء هذه النعرة عندما أوعزت إلى زوجها

---

(١) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٧ ؛ أيضاً د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص١٩٤ – ١٩٥ .

(٢) للإستزادة راجع إبن الوردى : تتمه المختصر فى أخبار البشر ، ط . القاهرة ١٢٥٨هـ/١٨٨٦م ، ج٢ ، ص٢٠٥ – ٢٠٦ .

هولاكو ، ذلك الجبار العنيد ، وأشارت عليه لاعداد حملة لغزو المسلمين فى بلاد الشام ومصر ، وكانت تهدف من وراء ذلك ، على حد تعبير أحد المؤرخين الايرانيين المحدثين ، لأن يكون بيت المقدس مزاراً للمسيحيين فى العالم بأسره [1] . وبذلك بدأت تلك المرأة الحديدية ، تضع البذور الأولى لحملات صليبية مغولية ضد الشرق الأدنى الاسلامى ، كما أنها بدأت تضع اللبنة الأولى لعقد تحالف صليبى مغولى أى بين قادة المسيحيين فى غرب آسيا من جهة ، وبين المغول من جهة أخرى ، ذلك أن هولاكو قد رحب بهذه الفكرة التى طرحتها دوقوزخاتون ، وبالفعل بدأ يعد العدة ويوجه طاقته لاخضاع بلاد الشام ومصر .

وسرعان ما بدأت اجراءات عقد التحالف بين قادة المسيحيين فى الشرق من جهة وبين المغول من جهة أخرى ، فقد رأى هيثوم ملك أرمينية الصغرى (قيلقية) أن الفرصة سانحة للانضمام إلى المغول لاستخلاص الشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص [2] . ولما كان بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس الصليبى ، حليفًا مخلصًا لجاره هيثوم وكان قد تزوج من ابنته ، فقد دخل هو الآخر فى الحلف المغولى . وكالعادة كان لزوجة هولاكو المسيحية دوقوزخاتون أكبر الأثر فى توطيد أواصر الصداقة بين الزعماء المسيحيين بالشرق وهولاكو . ويذكر المؤرخ الفرنسى رينية جروسيه Grousset, R. نقلاً عن المؤرخ الأرمنى هيتون

---

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران ، جلد أول ص١٩٨ .

(٢) جاء فى كتاب السلوك للمقريزى أن هيثوم إنضم إلى هولاكو رغبة فى حماية مملكته من سلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب ، وصارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعه لإيلخانية مغول فارس : المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ص٥١٠ حاشية ١ .

Hayton ، أن خطة الحملة المغولية لغزو بلاد الشام قد تقررت فى ذلك الاجتماع الذى عقد بين هولاكو وهيثوم الأول ملك قيلقيه ، والذى يبدو أن دوقوزخاتون لعبت الدور الرئيسي فى اعداده وانعقاده . وطلب هولاكو من حليفه أن يسير بجيشه الأرمنى إلى الرها وأن تنحاز القوات الأرمنية إلى المغول عند الرها بحجة أنه ذاهب لكى يخلص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ويردها للمسيحيين ، ففرح الملك هيثوم بذلك ، وجمع جيشاً كبيراً وانضم إلى هولاكو ، فى الوقت الذى قدم إلى هولاكو جاثليق الأرمن ليمنح البركات للخان المغولى (١) . وهكذا اتخذت حملة هولاكو على بلاد الشام صفة حملة صليبية أرمنية مغولية ، تحت رعاية ومظلة دوقوزخاتون ، خاصة لو علمنا أن هيثوم فى اتصاله بالمغول إنما كان يتحدث باسمه وباسم صهره بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس الصليبى .

ولم يقف الأمر عند حد القيام بتلك الحملة الصليبية الأرمنية المغولية المشتركة ، بل فكرت دوقوزخان على تكوين جبهة يشترك فيها البيزنطيين جنباً إلى جنب مع الأرمن والكرج والصليبيين ، ولذلك أشارت على زوجها هولاكو أن يوطد علاقته بالامبراطور البيزنطى لتوسيع حلقة التحالف المسيحى المغولى ضد المسلمين فى الشام ومصر ، فطلبت منه أن يتزوج أحد بنات امبراطور الروم ميخائيل باليولوجس Michael paleo-logos (٦٥٨ - ٦٨١ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٨٣م) وسرعان ما دارت المفاوضات مع الامبراطور البيزنطى ، الذى سر كثيراً لتوطيد علاقته بالمغول بالزواج السياسى ، حيث وقع الاختيار على مارية ابنة الامبراطور ، الذى أرسلها إليه تحمل الهدايا النفيسة فى معية البطريرك



(١) Grousset, L'empire des Steppes, p. 434 .

ايثيموس (١) .

وكيفما كان الأمر ، فقد اجتاحت جحافل المغول والصليبيين بلاد الشام من أقصاها إلى أدناها ، على أنهم لم يهاجموا بيت المقدس . وعندما دخل كتبغا إلى دمشق على رأس الجيش المغولى فى ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ، كان بصحبته ملك أرمينية وأمير أنطاكية ، ورحب المسيحيون فى دمشق بدخول المغول المدينة ، وشهد سكان عاصمة الخلافة الأموية لأول مرة منذ ستة قرون ثلاثة أمراء مسيحيين يشقون بموكبهم شوارع المدينة . فكان سقوط المدن الثلاثة الكبرى فى أيدى المغول بغداد ، حلب، ودمشق يعتبر من المصائب الكبرى التى نزلت على رأس العالم الاسلامى . وصدرت الأوامر من قبل دوقوزخاتون بألا يتعرض المغول بأذى للسكان المسيحيين وكنائسهم بدمشق ، وترتب على ذلك أن أعلن المسيحيون بها التمرد ، وهم يظهرون فرحتهم بما حل بالمسلمين من نكبة (٢) ، ولم يخف كتبغ عطفه القوى تجاه مسيحى دمشق ، وكان من الطبيعى أن يتأخى هؤلاء النساطرة وعلى رأسهم دوقوزخاتون ، وكتبغا مع الجماعات الأرمنية واليعاقبة والملكانية النصارى الذين تكاثر عددهم فى مدن كبيرة مثل حلب ودمشق ، فضلاً عن النساطرة أنفسهم فى ملطية ، وحلب ودمشق ولبنان (٣) . ويشير المقريزى فى السلوك إلى أن النصارى بدمشق استطالوا على المسلمين ، ونظموا مواكب عامة كانوا ينشدون فيها الأناشيد ، ويحملون الصلبان ، وأحضروا فرماناً من هولاكو

---

(١) عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، ص٢٠٢ . ويلاحظ أن مارية البيزنطية ما إن وصلت إلى عاصمة المغول حتى وجدت هولاكو قد مات .

(٢) Grousset, L'empire des Steppes, pp. 435 - 436 .

(٣) Grousset, op. cit., p. 436 .

بالاعتناء بأمرهم واقامة دينهم ، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات وصبوه على أبواب المساجد ، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع عن القيام للصليب ، فضجر المسلمون من تلك الأفعال وشكوا إلى كتبغا (كيتوبوقا) (١) نائب هولاكو ، فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ، وأخذته موجه من التقوى فجعل يزور كنائسهم ، ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم (٢) .

وهكذا وبفضل دوقوزخاتون المغولية النسطورية المسيطرة على هولاكو ، ذلك الجبار ، شهد النصارى فى ايلخانية فارس ، وفى العراق وبلاد الشام ، عصرهم الذهبى الثانى ، وتمتعوا بمكانة وامتيازات ، وأصبحت لهم اليد الطولى على المسلمين وهو ما لم يشهدوه حتى فى عصر كيوك وأمه توراكيناخاتون المعروفة بتعصبها الشديد لمسيحيتها .

وفى ربيع الثانى ٦٦٣ هـ / فبراير ١٢٦٥ مات هولاكو بالقرب من مراغة وكان فى الثامنة والأربعين من عمره (٣) ، ولم تلبث زوجته

---

(١) ورد إسم كتبغا بصور مختلفة فهو كيتوبوقا ، كيتبوقا ، كتبغا ، كتبوغا .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ص٤٢٥ ؛ الذهبى : دول الإسلام ، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٣٧هـ ،ج٢ ص١٢٥ . ومن المهم للغاية أن نذكر أنه صدرت أوامر من هولاكو بإحترام المؤسسات الدينية التى تنتمى للمذاهب المسيحية الأخرى والمذاهب الإسلامية غير السنية ، ومنها الخانقاه التى فيها زين الدين الطوسى العالم الرياضى الفلكى الذى تمتع فيما بعد برعاية وإهتمام هولاكو ، بالإضافة إلى كنيسة اليهود ، أما المسجد الأموى الجامع ، فإنه تعرض للحريق فى يناير ١٢٦٠ . وكان هيثوم ملك قليقية ، الذى قاتل فى صفوف المغول هو الذى بادر بإشعال الحرائق بهذا المسجد ، ولتمتد الحرائق إلى سائر المساجد . راجع د. العرينى : المغول ، ص٢١٤ – ٢١٥ ، ٢٤٨ .

(٣) يذكر شبولر أن سبب وفاته هو إدمانه لشرب الخمر . شبولر : العالم الإسلامى ، –

دورقوزخاتون أن لحقت به ، وحزن المسيحيون فى الشرق لوفاتهما ، فكانوا يعتبرونهما كوكبى الدين المسيحى ، وأنهما فى مكانة قسطنطين وهيلين (١) . وهكذا فقدت المسيحية النسطورية أكبر نصير لها فى ايلخانية فارس ، وفى الشرق الأدنى الاسلامى ، وكان ذلك ايذاناً بأفول نجم النصرانية فى هذه المناطق (٢) .

وبوفاة دوقوزخاتون طويت صفحة من صفحات إحدى نساء المغول اللائى تميزن بقوة الشخصية والتأثير القوى على أكبر وأقوى شخصيات مغول فارس ، والتى تحكمت فى مقدرات أمور زوجها وخانية فارس فى مجال السياسة الداخلية والسياسة الخارجية وفى الحملات التى قام بها هولاكو ، ضد المسلمين فى الشرق الاسلامى ، وطويت صفحة امرأة وضعت البذور الأولى لأول تحالف صليبى مغولى ، وتعهدت بالرعاية ذلك التحالف وشجعته ، ولو قدر لهذه المرأة أن تعيش بعد هولاكو ، عمراً أطول ، فلربما عاش المسلمون داخل امبراطورية المغول بفارس وفى بقية أنحاء الشرق الأدنى الاسلامى فى محنة لا يعلم مداها إلا الله .

وحرى بالذكر أنه بعد وفاة هولاكو خلفه على العرش ابنه الأكبر أباقا (أبغا) خان (٦٦٣ - ٦٨٠ هـ / ١٢٦٥ - ١٢٨٢م) واستمرت والدته دوقوزخاتون تحكم معه مدة قصيرة (٣) ، فأمرته بأن يتزوج من الأميرة

= ص٥٠٨ . راجع رأى د. فؤاد الصياد حول سبب وفاته . د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢١٤ .

(١) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٥٨ ؛ د. العرينى : المغول ، ص٢٨٠ .

(٢) يلاحظ أنه كان لوفاة هولاكو ودوقوزخاتون أثر شديد فى موقف المغول من حلفائهم الأرمن ، والكرج والفرنج .

(٣) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٦٥ .

البيزنطية مارية ابنة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس . وكانت هذه الأميرة قد أرسلها والدها الامبراطور ليتزوجها هولاكو لتوطيد العلاقات السياسية بين المغول والبيزنطيين طبقاً لمشورة دوقوزخاتون كما ذكرنا من قبل ، إلا أنها لما بلغت عاصمة المغول (تبريز) كان هولاكو قد توفى ، فتزوجها ابنه أباقا . وبذلك قويت العلاقات بين المغول والروم ، وبدأت دوقوزخاتون ترى ثمار سياستها قبل وفاتها ، فجعلت أباقا يعقد المعاهدات مع ملوك أوربا والبابوات ضد المسلمين فى الشرق الأدنى خاصة فى بلاد الشام ومصر [١] .

ويلاحظ أن تلك الأميرة البيزنطية زوجة أباقا قد احتفظت بعقيدتها الأرثوذكسية فى تبريز ، ولما توفيت دوقوزخاتون ، وارتفعت منزلة مارية البيزنطية ، أرادت أن تقتفى نفس نهج دوقوزخاتون تجاه المسيحيين ، فيذكر شبولر أنها أمرت بجلب الرسامين والفنانين المسيحيين من القسطنطينية لتزيين كنائس تبريز [٢] ، ولكن يبدو كما يذكر المؤرخ الألمانى شبولر ، أن مريم زوجة أباقا لم يكن لها من النفوذ والسيطرة مثلما كان الحال مع دوقوزخاتون [٣] .

دور زوجات سلاطين مغول فارس المسلمين : ساتى بيك ، وبغدادخاتون ، ودلشادخاتون :

وما زلنا بصدد الحديث عن نساء أوخاتونات ايلخانات مغول فارس . ويذكر القلقشندى أن معظم خواتين ايلخانية فارس كن يشاركن أزواجهن

---

(١) د. فؤاد الصياد : الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين ، الدوحة ١٩٨٥ ، ص٥٥ .

(٢) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٦٥ .

(٣) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٦٥ – ٦٦ .

فى الحكم وكن يصدرون الأوامر ويقمن بتسيير أمور الدولة معهم (١) وأن السلطان نفسه عندما يصدر أوامره يصدرها باسمه وباسم خواتينه او زوجاته (٢) . وكانت ضمن هؤلاء أمرأة تسمى ساتى بيك ابنة السلطان أولجايتو (٣) وأخت السلطان أبى سعيد (٤) ، إلا أن ساتى بيك تربعت وحدها على عرش الايلخانيين فى فارس ، وذلك عندما وقع اختيار أسرة الجوبانيين وزعيمهم الشيخ حسن بن تيمورتاش ابن الأمير جوبان الشهير بحسن كوجك ، على ساتى بيك لتتولى السلطنة منفردة دون غيرها من أفراد الأسرة الحاكمة ، وضربت السكة باسمها ، كما قرأت الخطبة باسمها أيضًا على منابر ايلخانية فارس وذلك عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ - ١٣٣٨م (٥) . وقد أيدت الشيخ حسن كوجك زعيم أسرة الجوبانيين فى صراعة ضد الشيخ حسن بزرك مؤسس دولة الجلائريين ، وذهبت بنفسها على رأس الحملات العسكرية التى اتجهت لضم كل من سلطانية وآذربيجان (٦) ، واستطاعت بذلك توسيع دائرة نفوذها بضم هذه المناطق إلى ممتلكاتها .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٥ ؛ إبن بطوطة : رحلته ص٢٤٣ .

(٢) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ ؛ أيضًا د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٥ .

(٣) أولجايتو : خلف محمود غازان خان (داستان غازان خان) على عرش فارس ، وأتخذ لنفسه اسماً اسلامياً ايرانيًا وهو محمد خدابندة راجع البدليسى : شرفنامة ، ترجمة عن الفارسية إلى العربية محمد على عونى ط. مصر ١٩٦٢ ، ج٢ ص٣٨ ؛ أيضاً شبولر : العالم الإسلامى ، ص٧٦ .

(٤) البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٣٨ ؛ خواندمير : حبيب السير ، تهران ١٣٣٣ هـ. ش ، ج٣ ص٢٢٨- ٢٢٩ .

(٥) البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٣٨ .

(٦) البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٣٨ .

والمرجح أن صراعًا خفياً دب بين ساتى بيك ونصيرها الشيخ حسن كوجك . وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر إلى مثل هذا الصراع أو أسبابه ، إلا أننا نرجح أن ساتى بيك قد أصابها الغرور بعد سلسلة الانتصارات التى حققتها فى فترة سلطنتها وضمها العديد من الأقاليم الجديدة إلى ايلخانية فارس ، مما جعلها تفكر فى ازاحة الشيخ حسن كوجك والغدر بولى نعمتها الذى كان السبب الرئيسى فى رفعها على العرش . وعندما أدرك حسن كوجك نية ساتى بيك فى الغدر به ، فإنه أسرع بخلع ساتى بيك من عرش السلطنة ، وأجبرها على أن تتزوج من سليمان خان بن يوسف شاه أحد أبناء يشمت بن هولاكو والذى أجلسه على العرش بدلاً منها عام ٧٣٩ هـ / ١٣٣٩م (١) . وبذلك دفعت ساتى بيك ثمن غرورها وأطماعها ونكرانها الجميل (٢) .

ولدينا مثال آخر لامرأتين من خواتين فارس تصارعتا على قلب رجل واحد للسيطرة على مقدرات الأمور فى الدولة إحداهما العمة والثانية ابنة أخيها والذى دب بينهما الصراع والغيرة والحسد ، وقد دفع زوجهما فيما بعد حياته ثمناً لهذا الصراع بين الأنثيين . وكانت المرأة الأولى هى بغداد خاتون بنت جوبان امرأة السلطان أبى سعيد بهادر بن خدابندا (أولجايتو)(٣) ايلخان مغول فارس (٧١٦ - ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ -

---

(١) البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٣٩ ؛ أيضاً عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، جلد أول ص٣٥٨ .

(٢) من المهم جداً أن نذكر أن الشيخ حسن كوجك بعد ذلك قد لقى نهايته على أيدى زوجته الملكة عزت بالإتفاق مع بعض النساء والجوارى . البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٤١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٦ . راجع ما ذكره إبن بطوطة عن الظروف التى أحاطت بزواج أبو سعيد من بغداد خاتون . إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ ؛ أيضاً شبولر : العالم الإسلامى ، ص٧٩ .

١٣٣٥م) ، ويبدو أنها كانت من العزم وقوة الشخصية بحيث أن أوامرها كانت لا تناقش فى جميع أرجاء الإيلخانية ويبدو أنها كان متسلطة وتسيطر على أمور المملكة بيد من حديد ، لدرجة أن القلقشندى يذكر «بأنه لم يُرْ من يحكم حكمها » (١) ، ويذكر ابن بطوطة أنها كانت من أجمل نساء عصرها ، وأحبها أبو سعيد حبًا جمًا ، وملكت عليه عقله وقلبه ، وكانت أحظى النساء لديه ، وفضلها على من سواها وأقامت على ذلك مدة (٢) . ويذكر صاحب الدرر الكامنة « أنها صارت عنده فى أعلى مكانة ، تمتعت بالنفوذ والقوة فى جميع أنحاء المملكة ، وكانت تركب فى مركب حفل من الخواتين وتشد فى وسطها سيفاً » (٣) .

على أن دوام الحال من المحال فسرعان ما وقع زوجها أبو سعيد فى هوى ابنه أخيها دلشادخاتون (٤) ، وأحبها حبًا شديداً ، وتزوجها وهجر بغداد خاتون (٥) . وكما هى طبيعة المرأة دائماً ، فقد دب دبيب الغيرة والحسد فى قلب بغداد خاتون التى أحست أن مكانتها بدأت تضعف ، فبدأت تتحين الفرصة للانتقام من زوجها . ولدينا روايتين مختلفتين حول كيفية تخلص بغداد خاتون من زوجها السلطان أبى سعيد . فالرواية الأولى تذكر أنها تآمرت عليه فراسلت فى الخفاء عدوه اللدود أوزبك خان حاكم مغول القبجاق (الأوردو الذهبية) وأتفقت معه على الغدر بزوجها

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٦ .

(٢) إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ .

(٣) إبن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٤٩ هـ ، ج١ ص٤٨٠ .

(٤) سوف نعرض لدورها بالتفصيل فى حينه .

(٥) إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ .

وعدوه ، وبالفعل قتله أوزبك خان [١] ، وأن الناس عندما عرفوا خيانتها لزوجها وقتلها أياه بأيدى عدوه أوزبك ، اتفقوا على قتلها ، وبالفعل قتلت فى الحمام عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦م [٢] ، ولتلقى نفس مصير الملكة السلطانة شجر الدر فى مصر .

أما الرواية الثانية فتذكر أن بغداد خاتون قتلته بأن دست له السم فى منديل [٣] ، ولما عرف الأمراء أن بغداد خاتون هى التى قتلته أجمعوا على قتلها ، عن طريق الفتى الرومى خواجة لؤلؤ ، وكان من كبار الأمراء فقتلها فى الحمام عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦م [٤] . ويؤيد المؤرخ الألمانى شبولر الرواية الاسلامية الثانية التى تتهم بغداد خاتون بقتل زوجها عن طريق دس السم له ، على أساس أنها انتقمت بذلك بما فعله زوجها فى أبيها جوبان وأخواتها من قبل عام ٧٢٥ هـ / ١٣٢٧م [٥] .

وحرى بالذكر أن أبى سعيد قتل دون أن يكون له وريث شرعى بعده ، وحيث تغلب أمراء دولته على ممتلكاته فيما بعد [٦] .

وفيما يتعلق بدور الأميرة دلشادخاتون زوجة أبى سعيد والتى كانت

---

(١) د. عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، القاهرة ١٩٨١ ، ص٢٣٣ .

(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ، ص٢٣٣ .

(٣) هذه هى رواية إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ ؛ رواية إبن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج١ ص٤٨٠ . ويذكر إبن بطوطة إنه ضربها بدبوسه وهى فى الحمام .

(٤) إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ ؛ إبن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج١ ص٤٨٠ .

(٥) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٧٩ .

(٦) إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ .

سبباً فى مقتله ومقتل عمتها بغداد خاتون بعدها ، فهى دلشاد بنت دمشق خواجة بن الجوبان (١) . تميزت بالذكاء والدهاء والتبصر بأمور السياسة ، وكانت ذات سحر ودلال ، أوقعت السلطان أبى سعيد فى حبائلها ، واستحوذت على قلبه وعقله ، وتسلطت عليه لدرجة أنه كان لا يقطع رأى إلا بمشورتها (٢) .

وعندما علمت بمقتل عمتها لزوجها السلطان أبى سعيد فرت إلى بغداد عند خال زوجها الأمير على بإدشاة ، وكان حاكماً على بغداد (٣) . ثم تزوجت ثانية بالشيخ حسن بزرك ، الذى تغلب على العرش بعد مقتل السلطان أبى سعيد (٤) ، وشاركت معه فى تأسيس الدولة الجلائرية فى غرب ايران (٥) . وقد حظيت عند زوجها الشيخ حسن بزرك بمكانة كبيرة ، وكان أمرها نافذ فى الممالك ، ولها نائب فى كل شيئ يحكم عليه زوجها . وكانت عظيمة النفوذ على أمراء الدولة وعنيت باقامة العمائر فى البلاد ، وكانت تميل إلى الغرباء والفقراء وتحسن إليهم ، كما أوقفت الكثير من الأوقاف على الأماكن الاسلامية المقدسة . وقد بلغ من عظم نفوذ هذه المرأة أن أعظم شعراء الجلائريين ، وأحد المعاصرين لها ، سلمان الساوجى ، قد أفود لها مكاناً فى شعره ، وأطلق عليها اسم السلطان والشاة ، كما كان يخاطبها بلقب الملكة .

---

(١) هكذا ورد إسمها فى إبن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج٢ ص١٠١ . وعن والدها دمشق خواجة راجع إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤١ – ٢٤٢ .

(٢) د. فؤاد الصياد : الشرق الإسلامى ، ص٤٧٤ .

(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، ص٢٣٤ .

(٤) إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ – ٢٤٤ ؛ إبن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج٢ ص١٠١ .

(٥) البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٤٠ .

ويظهر المعدن القوى لتلك المرأة عند توجه الملك الأشرف عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م بجيشه الجرار للاستيلاء على بغداد عاصمة ملكهم ، أراد زوجها الشيخ حسن بزرك ترك الدفاع عن بغداد ، واللجوء إلى بلاد الروم عندما شعر بأنه لا قبل له بمواجهة جيوش الأشرف ، إلا أن دلشاد منعته من ذلك ، وشجعته على تقوية تحصينات المدينة واتخاذ الاستعدادات لمواجهة الأشرف ، وبعد شهرين من المقاومة الباسلة لزوجها حسن بزرك ، أدرك الملك الأشرف بعدم جدوى استمرار حصار بغداد ، فانسحب من أمام المدينة عائداً إلى تبريز (١) . ويلاحظ أنه لم يمتد بها الأجل ، فسرعان ما توفيت دلشاد خاتون قبل وفاة زوجها بعامين وذلك عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤م (٢) .

وبعد فحسبنا هذا القدر من التعرف على المرأة المغولية ونشاطها فى ميدان السياسة من حيث كونها ملكة ووصية لنسلط الأضواء على دورها فى مجالات أخرى مثل المجال العسكرى كما سنذكر فى حينه (٣) .

---

(١) هذه هى رواية البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٤٢ – ٤٣ .

(٢) توفى الشيخ حسن بزرك عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م ، وتولى بعده السلطنة إبنه أويس . البدليسى : شرفنامة ، ج٢ ص٤٦ .

(٣) ومن المهم للغاية أن نذكر أننا اكتفينا بهذا القدر فيما يتعلق بالدور السياسى للمرأة المغولية . ولدينا العديد من الأمثلة الأخرى الدالة على مكانة المرأة المغولية سياسيًا ، فهناك أمثلة لنساء مغوليات تولين منصب الإمارة ، ولكنهن كن ضعيفات الشخصية ، لم يسهمن بأى دور فى النهوض بإماراتهن مثل دولة خاتون التى تولت منصب الإمارة ، وفى عهدها إختلت الأمور وساءت الأحوال ، وإنتشرت الفوضى فى الإمارة . للإستزادة راجع البدليسى : شرفنامة ، ج١ ص٤٦ .

٢- دور المرأة المغولية فى المجال العسكرى :

لم يقتصر دور المرأة المغولية على الجانب السياسى فقط ، بل ظهرت مقدرتها وبراعتها أيضاً فى المجال العسكرى وفى ميدان القتال ، فهن عاملات مجدات ومحاربات أيضًا مثل الرجال [١] . فالمعروف عن المغول أنهم أهل حرب وفروسية وقتال ، فهم مطبوعون على حب المخاطرة والصراع [٢] ، على النحو الذى أكدته قوانين الياسا فى شقها العسكرى [٣] .

وهناك أمثلة عديدة حفلت بها مصادر المغول تؤكد شجاعة المرأة المغولية وجسارتها فى ميدان القتال خاصة فى مجال سلاح الفرسان . فالفروسية عند المغول لها مركز ممتاز ، وقد كانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهر الحصان ، ولا يكادون ينقلون قدمًا على الأرض . ومن لا يرافقه الحصان كان يعرف عنه إما فقير أو عديم الأصدقاء ، ذلك لأن المغولى ، طبقًا لقوانين الياسا ، لا يتأخر عن تقديم حصان لآخر يطلبه [٤] . ولم يكن الرجال يختصون بهذا الأمر دون النساء . بل إن النساء كن يركبن الخيل كالرجال تماماً ، وكن يستعملن الأقواس والسهام ، ويقدرون على البقاء على ظهر الحصان مدة طويلة ،

---

(١) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٥ . معتمداً على نص إبن عربشاه : عجائب المقدور .

(٢) للإستزادة عن ذلك راجع المقال الرائع لأستاذنا الدكتور سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٤ – ٧٥ .

(٣) Carpini,History, pp. 46 - 47.

أيضاً د. سعد الغامدى : الياسا ، مجلة آداب إسكندرية ، مجلد ٣٧ ، ص١١٥ – ١٢٠ .

(٤) Carpini, History ,pp.46.47.

ويذهبن مع الرجال إلى القتال (١) .

ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن المرأة المغولية كانت قادرة مثل الرجال ، على ركوب الخيل والبقاء على صهوات الجياد ، ولكنهن كن يلبسن قلنسوة أو طربوش على الرأس ، ويربطن حول خصرهن رباط وبرى ، كما يقمن بشد أثدائهن بحزام معين ، لوقايتهن من الأذى أثناء انطلاق الجواد بأقصى سرعته (٢) .

وقد تميزت المرأة المغولية أيضاً بانخراطها كرديف للجيوش أثناء الحملات العسكرية ، فلم تكن المرأة تهتم بإدارة شئوون المنزل وتربية الأطفال فحسب ، بل كانت ترافق الجيش في حملاته ، وتهتم بشئوون الرجال المحاربين وحاجاتهم ، وفى أثناء المعارك كانت النساء تحفظ فى عربات خاصة فى المعسكرات ، ولكن فى حالة الطوارئ ووقت الخطر الشديد كن يشتركن فى القتال (٣) ، بل ويرجحن أحياناً كفة الجيش المغولى فى المعارك . كما لعبن دوراً حيوياً فى حصار واسقاط المدن المحاصرة من قبل الجيش المغولى (٤) . وقد أفرد چنكيزخان فى الياسا دوراً للنساء المغول اللائى لا يخرجن للقتال مع رجالهن ، عندما تضمنت أحد بنود الياسا الزاماً لنساء الجند الخارجين للقتال بالقيام بما على الرجال

---

(١) Howorth, History of the Mongols, London 1876 - 1888, vol IV, pp. 44,62 .

(٢) راجع الدراسة الطيبة للدكتور سعد الغامدى : المغول بيئتهم الطبيعية وحياتهم الإجتماعية والدينية ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م ، ص١١٣- ١١٤.

(٣) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٢٨ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٧١ .

من أعباء ومهام أثناء غيابهم في ميدان القتال [١] . ويذكر الجويني أن النساء المغوليات اللائي كن يلحقن بمؤخرة الجيش ولا يشاركن في القتال، كن يكلفن باعداد الطعام وتجهيز المؤون والامدادات للجيش دون أن تتوان أيا منهن في ذلك [٢] .

وقد احتوت مصادر المغول العديد من الأمثلة التي تؤكد هذه الأمور وتظهر مدى شجاعة المرأة المغولية كمحاربة جنباً إلى جنب مع الرجال فمؤرخ المغول يشير إلى دور امرأة كانت تدعى قوتولون جغان ابنة قايدو حفيد أوكتاي ، كان يؤثرها على جميع أبنائه ، يقال أنها كانت تسلك سلوك الرجال ، إذ حاربت عدة مرات في صفوف الجيش المغولي ضمن «القوات غير النظامية» [٣] ، وأظهرت ضروباً كثيرة من الشجاعة والبراعة لدرجة أثارت اعجاب والدها إلى حد أنه لم يزوجها إلا في فترة متأخرة من حياتها ، كما أثارت ببسالتها في القتال اعجاب الكثيرين ، وأثارت أيضاً حسد الكثيرين لدرجة أنه عندما مات والدها قايدو ، أظهرت رغبة شديدة في قيادة الجيش وتدبير المملكة لما لها من خبرة وبراعة في فن الحرب والقتال ، إلا أن ذلك آثار ضيق وحسد الحاسدين من الأمراء والقادة ، الذين اعترضوا على ذلك لأنهم شعروا أنها كانت تزاحمهم في مكان الصدارة في قيادة جيوش مملكة قايدو [٤] .

---

(١) أحد بنود الياسا كما ذكرها د. العريني : المغول ، ص٦٣ .

(٢) الجويني : جهانكشاي ، ج١ ص٦٦ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٥ . ولم يوضح نص رشيد الدين ماذا يقصد بالقوات غير النظامية . ونرجح أنها كانت ضمن فرق الجيش المغولي غير الدائمة .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٥ – ٢٦ . وهو المؤرخ الوحيد الذي إنفرد بذكر هذه الرواية الفريدة .

ولدينا أمثلة أخرى تشير إلى مدى جراءة وقوة المرأة المغولية فى القتال فيقال أنه فى إحدى المعارك ، قتلت امرأة مغولية عشرة رجال من اللر (١) . وشاركت المرأة المغولية أيضًا فى المذابح التى ارتكبها الجند المغول فى المدن المفتوحة . فتشير إحدى الروايات إلى أن امرأة من التتر فى إحدى مدن آسيا الصغرى دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنونها رجلاً ، فلما وضعت السلاح فإذا هى امرأة (٢) .

وتلك المرأة المعروفة باسم نوكاخاتون زوجة بُراق بن ييسون توقا حفيد جغتاى ، والذى كان خاناً على ألوس جغتاى بعد أن أطاح بمباركشاة من الألوس ، وقد دخل فى سلسلة من الحروب مع آباقاخان بن هولاكو ، وفى إحدى المعارك أصيب بهزيمة كبيرة ، تمخضت عن اصابته بالفالج فأقعده ذلك فى داره ، وأنفض من حوله القريب والصديق ، بل وخرج عليه أحد أقاربه ويسمى أحمد أغول بن بورى بن جغتاى ، فاستشاطت نوكاخاتون غضباً ، واشتعلت حماستها وأعلنت أنها سوف تخرج بنفسها على رأس الجيش لتأسر أحمد أغول الذى يناصب زوجها براق العداء لتعود به إليه ، وبالفعل خرجت على رأس جيش كبير وحملت معها زوجها براق محمولاً على محفة وكان لها ما أرادت (٣) .

ولدينا رواية نادرة عن الدور الفعال الذى قامت به المرأة المغولية فى

---

(١) البدليسى : شرفنامة ، ج١ ص٣١ . واللرنسبة إلى إقليم لرستان الذى ينقسم إلى قسمين: اللر الكبير ، واللر الصغير ويقع فى منطقة الجزيرة العراقية ومعظم أهله من الأكراد . راجع البدليسى : شرفنامة ، ج١ ص٢٤ - ٢٥ ، ٣٤ - ٣٥ .

(٢) إبن الأثير : الكامل فى التاريخ ، نشر المطبعة الدمشقية ، القاهرة ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ ، ج٩ ص٣٣٧ ؛ أيضاً د. فؤاد الصياد : المغول ، ص٢١٩ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج٢ مجلد٢ ، ص٤٨ .

حصار واسقاط المدن ، واشتراكها فى المذابح المروعة التى ارتكبت داخل تلك المدن بعد سقوطها . فها هى ابنة جنكيزخان زوجة تغاجار كوركان المسئول عن حصار واسقاط مدينة نيسابور ، والذى دفع حياته ثمناً لحصار تلك المدينة ، كانت على رأس طلائع الجند المحاصرين للمدينة حيث لعبت دوراً مؤثراً فى حصارها واسقاطها ، ثم شاركت بنفسها فى تلك المذبحة المروعة التى ارتكبها الجند المغول داخل نيسابور ، بحيث لم تبق على أى مخلوق داخل المدينة إلا وذبحته بسيفها ، وذلك طبقاً للنص الفريد والوحيد الذى ذكره الجوينى عن دورها [1] .

٣- الدور الحضارى للمرأة المغولية أو الاسهام العلمى والثقافى والعمرانى للمرأة المغولية (دور سرقويتى بيكى) :

قد يبدو عنوان « الدور الحضارى للمرأة المغولية واسهامها العلمى والثقافى والعمرانى فى العصر المغولى ، مما يثير الدهشة أو الاستغراب لدى الباحث أو القارئ لتاريخ المغول بصفة عامة وتاريخ المرأة المغولية بصفة خاصة . وقد يتساءل القارئ كيف يتأتى لهؤلاء المغول أن تكون لهم حضارة أو أن يكون لهم اسهام حضارى فى الحضارات المعاصرة لهم وقتذاك ، خاصة وأن كلمة المغول تثير دائمًا لدى القارئ أو الباحث الاحساس بالخوف ومظاهر الرعب والدماء ، وترسم لوحة أو صورة رهيبة للتخريب والدمار وسفك الدماء الذى صاحبهم فى غزواتهم وحتى خلال الفترة التى نحن بصدد التأريخ لها على النحو الذى صورته لنا المصادر الاسلامية وبعض مصادر المغول وكذلك المصادر الصينية [2] ، على

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٧١ .

(٢) برتولد : تركستان ، ص١٠٩ . وقد تناولنا هذه الأمور بالتفصيل فى بحث سابق لنا د.صلاح نوار : الطوائف المغولية فى مصر ، ٦– ٧ .

أساس أنهم مجرد شعوب همجية متبربرة بدائية ، لم تعرف الحضارة لهم طريقاً .

وهذه النظرة تعتبر نظرة محدودة وضيقة ولا تعتمد على أسانيد تاريخية منطقية قوية أو صحيحة ، فقد وجدت قلة من المستشرقين والمؤرخين العرب المحدثين وعلى رأسهم المستشرق الروسى الكبير فلاديميروفتش برتولد V.V.Bartold ، يرون أن الغزوات المغولية لمنطقة الشرق الأقصى ، والشرق الأدنى الاسلامى لم تكن سيئة إلى هذا الحد الذى تصوره لنا المصادر المشرقية والغربية ، بل على العكس بلغت الحضارة فى هذه المناطق فى عهدهم شأواً بعيداً من الرقى والتقدم (١) ، وأنه خلال النار والدماء وأشلاء القتلى التى خلفتها فتوحاتهم ، بزغت على العالم أنوار مشرقة فى عهدهم (٢) .

وانطلاقاً من هذه الحقائق نستطيع القول ، واستناداً على ما لدينا من نصوص مؤرخى المغول وكان منهم المعاصرين وشهود عيان ، أن المغول قد تهذبوا وتحضروا ، لأنهم غزوا مناطق وشعوب كانت تتميز بحضارات

---

(١) لدينا رواية لمؤرخ المغول حول جهود أوكتاى قاآن فى تعمير مدينة قراقورم حيث بنى بها قصراً عالى البنيان ، وشيد فى وسطه جوسقاً فى غاية العلو والإرتفاع . رشيد الدين: جامع التواريخ ، ص٥٩ – ٦٠ .

(٢) برتولد : تركستان ، ص١٠٩ . ويؤيد هذا الرأى العام الجليل الأستاذ الدكتور فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ، ص٢ . ويذكر هايد Heyd أن المغول لم يكونوا مختلفين أو همج إلى هذه الدرجة ، فثمة حقيقة واحدة تكفى لإثبات الرأى الذى ذكره برتولد ، إنهم كلما إستولوا على مدينة كانوا يراعون بصفة عامة سلامة الصناع والحرفيين من سكانها وينشئوا العديد من المستوطنات الصناعية ، وينقلون هؤلاء الصناع والحرفيين المهرة إلى أماكن مختلفة من إمبراطوريتهم الشاسعة . راجع هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا ، مراجعة د. عز الدين فوده ، ط. الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩١م ، ج٢ ص٣٠٦ .

عريقة راقية مثل الحضارة الصينية والحضارة الاسلامية ، حيث تأثروا بكل هذه الحضارات وتشربوا بها ، بل وبدأ الكثير منهم يترك ديانته القديمة (الشامانية والبوذية) ويعتنق الاسلام والمسيحية ، أو حتى من ظل على ديانته القديمة قد تأثر بأفكار ومبادئ الاسلام والمسيحية فى المناطق التى احتوتها امبراطوريتهم الشاسعة ، بل وبدأوا ينقلون الكثير من مظاهر تلك الحضارة إلى عاصمتهم قراقورم ممثلاً فى الصناع وأرباب الحرف فى المناطق المفتوحة ، لكى يرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا لانشاء مبانيهم هناك (١) . كما يلاحظ أيضاً أنه نظراً لطول معاشرة المغول للأمم المتمدينة ولكثرة اختلاطهم بالمتحضرين فى الأمم المغلوبة ، فقد خفت إلى حد ما صلابة المغول وخشونتهم وتعطشهم لسفك الدماء . وهذه الصفات كانت تلاحظ بوضوح فى حكام المغول الأول باستثناء أوكتاى وكذلك منكوقاآن .

ولم يكتف المغول بالتأثر بالحضارات التى عاشوا فى وسطها خاصة الحضارة الاسلامية ، بل بدأوا يسهمون أيضًا فى تلك الحضارات المعاصرة ، وكان للدين الاسلامى دوراً كبيراً فى هذا . وسوف نطبق هذه الأمور على عصر أحد قاآنات المغول الكبار ، الذى نعتبره فى دراستنا تلك ، نموذج لامبراطور المغول المتحضر والمتأثر بالحضارة الاسلامية، وذلك بتأثير كبير وقوى من والدته صاحبة الفضل الأول عليه فى تسنمة السلطة ، وفى تسامحه الدينى الكبير مع جميع الأديان خاصة الاسلام والمسيحية واحترامه الشديد لهما ، وكان ذلك يمثل اسهاماً حضارياً كبيراً من قبل والدته سرقوينى بيكى (سيورقوقتيتى بيكى) ، التى لم تكتف بالتأثير على فكره وسلوكه تجاه أصحاب الديانات المختلفة وطريقة ادارته

---

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٦١ – ٢٦٢ .

للدولة ، بل أنها أسهمت هي أيضًا فكريًا وثقافيًا وعمرانيًا في الحضارة الاسلامية ، على الرغم من أنها كانت مسيحية العقيدة ، بل وكانت تعمل على نشرها ، إلا أنها احترمت الاسلام بشدة على النحو الذى أكده مؤرخو المغول (١) ، وهو الأمر الذى لن ينساه التاريخ لها ولابنها منكوقاآن .

وبفضل والدته الفاضلة ، وبتأثير كبير منها استفاد منكو من تربيتها القويمة له ، ومع أنه لم يكن مسيحيًا كوالدته ، إلا أنه تأثر بها تأثرًا عميقًا حتى أن جميع الأديان استطاعت أن تتعامل وتعيش بحرية جنبًا إلى جنب أثناء حكمه (٢) . فعلى الرغم من أن سرقويتى بيكى اعتنقت المسيحية وتمسكت بها وعضت عليها بالنواجذ ، لدرجة أنها عملت على نشرها فى كافة أنحاء الامبراطورية المغولية ، إلا أنها كانت تحترم الديانة الاسلامية احترامًا شديداً ، بل وكانت تسعى جدياً فى اظهار شعائر الشريعة الاسلامية فى كل مناسبة ، وفرضت حمايتها القوية على الاسلام والمسلمين(٣) ، وكانت تغدق الصدقات والعطايا على أئمة المسلمين ومشايخهم وعلمائهم (٤) .

وقد تأثر منكوقاآن كثيراً بحب واحترام والدته الشديد للعقيدة الاسلامية والمسلمين ، ولهذا أظهر هو أيضًا تسامحًا واحتراماً كبيرين للاسلام . وعلى الرغم من أنه كان شامانياً ، وأنه عامل النصارى معاملة

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٩٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٢٠ .

(٢) شبولر : العالم الإسلامى ، ص٤٢ . ويزعم كاتب بوذى أن منكوقاآن قد أعترف بتفوق البوذية على كافة الأديان لأنه كما تخرج الأصابع الخمسة من الكف . فكذلك البوذية هى الكف وجميع العقائد الأخرى بمثابة الأصابع . برتولد : تركستان ، ص٦٨٦ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٨ .

(٤) رشيد الدين : جامع التوايخ ، ص١٩٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٢٠ .

خاصة لم يظفر بمثلها غيرهم من أتباع الديانات الأخرى ، بل وأسند تعليم ولده الأكبر بلتو إلى رجل نصرانى ، وكان كبير وزرائه (بلغاى) نصرانياً أيضاً [١] ، إلا أنه كان يرى أن جميع الأديان جديرة بالاحترام والتقدير ، ولم يسمح اطلاقًا ، وبتأثير من والدته سرقويتى بيكى وارضاء لها ، باضطهاد واحد من الناس بسبب العقيدة ، كذلك وطبقًا لمصادر المغول ، لم يكن لديه أى رغبة قوية فى اجبار أتباع الديانات الأخرى على الالتزام بقواعد أو قوانين الياسا . فإذا ما أخذنا بقول رشيد الدين فإنه فى المأدبة التى أقيمت بمناسبة اعتلاء منكو العرش ، ذبحت الماشية وفقاً لقواعد الشريعة الاسلامية من أجل ضيوفه المسلمين ، وعلى رأسهم بركة (بركاى) خان مغول القبجاق [٢] . وعندما علم بتدبير مؤامرة تهدف إلى قتل جميع المسلمين ببلاده أثناء صلاة الجمعة [٣] ، قام بمحاكمة جميع المتهمين فيها واعدامهم ، وعلى رأسهم أوغول غايمش إحدى أميرات الأسرة الحاكمة ، والوصية السابقة على العرش القاآنى [٤] ، وذلك لاظهار احترامه للاسلام والمسلمين وارضاء لوالدته .

ويذكر الجوزجانى أنه بلغ من شدة احترام منكوقاآن للمسلمين أنه عندما اعتلى العرش نطق بالشهادتين تحت الحاح من بركة خان [٥] . وكما فعلت والدته فى اسباغ حمايتها وكرمها على المسلمين ومنهم العلماء والفقهاء ، فإنه هو أيضاً خص المسلمين بمزيد من الاكرام والاحترام ،

---

(١) برتولد : تركستان ، ص٦٨٥ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢٠٤ .

(٣) رشد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٣ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٢ - ٢١٣ .

(٥) الجوزجانى : طبقات ناصرى ، ط. نساو - ليس ، ٤١٠ - ٤١١ .

على حد قول مؤرخ المغول ، وميزهم على جميع الطوائف والمذاهب ، وأمر لهم أيضاً بالصلات والصدقات (١) . ومصداقاً لهذا عندما وقف القاضي جلال الدين محمود الخجندي يخطب في المسلمين في عيد الفطر سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢م ، فإنه أثنى على القاآن منكو ، وما يقوم به من أعمال تجاه الاسلام والمسلمين ، فذكر ألقاب الخليفة العباسي ، ثم دعا لمنكوقاآن (٢) ، وعندما علم منكو بذلك أرسل إليهم ، العيدية على سبيل التشريف وأعطاهم عربات محملة بأكياس النقد من الذهب والفضة والملابس القيمة ، (٣) .

وبتأثير من والدته وبمشورتها أصدر القاآن منكو يارليغاً نافذاً باطلاق سراح جميع المعتقلين والمسجونين ومنهم مسلمين في سائر الممالك التي تتكون منها الامبراطورية المغولية (٤) ، كما أنه أصدر أمراً باعفاء جميع رجال الدين من مختلف الأديان ، من الضرائب والتكاليف الأخرى الملقاة على عاتقهم ، ومن هؤلاء طائفة السادات الكرام والمشايخ الكبار والأئمة والأخيار من المسلمين ، وكذلك كبار القسس والرهبان والأحبار من النصارى ، واللامات المشهورين من البوذيين (٥) ، بالاضافة إلى الطاعنين في السن ، والعاجزين وغير القادرين على الكسب والعمل (٦) .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٧ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٧ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٨ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ . ص٢١٨ .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٨ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٦ - ٢١٧ ؛ إبن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص٢١٧ .

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٧ .

ويرى ميرخواند أن الاستثناء الوحيد من هذا القرار كان حاخامات اليهود ، الأمر الذى آثار السخط الشديد بين أفراد هذه الطائفة [1] . على أنه من الصعب تصديق هذه الرواية من قبل ميرخواند خاصة وأنه لا يوجد لها صدى فى بقية مصادر المغول المعاصرة أمثال الجهانكشاى ، وجامع التواريخ . كما أنها لا تستند على أدلة أو أسانيد قوية ، وتتعارض أو تتناقض مع السياسة العامة التى سار عليها منكوقاآن بتأثير أمه سرقويتى بيكى ، فى احترام وتقدير جميع الأديان ، كما أنه هذه الرواية من قبل ميرخواند ، لو كانت صحيحة ، فلربما كان رشيد الدين أسرع بتسجيلها بين أوراقه . ويلاحظ أنه كان ضمن تأثير الاسلام على منكوقاآن أنه حرص على تمهيد قواعد العدل فى الامبراطورية المغولية ، والاهتمام بكل مشاكل وشكاوى العناصر والأجناس التى كانت تضمها امبراطوريته ، وعين لذلك العديد من الكتاب على رأسهم الأمير عماد الملك وفخر الدين [2] .

وهكذا ظهر التأثير الحضارى للمرأة المغولية على المجتمع المغولى واسهامها الفكرى والدينى . فقد جعلت سرقويتى بيكى من ابنها منكو القاآن الأعظم للمغول ، يظهر بصورة الامبراطور المتحضر فكرياً ودينياً ، وجعلت منه نموذجًا ومثالاً للحاكم المغولى المستنير فكرياً ودينيًا ، وهذا يعتبر فى رأينا أكبر انجاز أو اسهام حضارى للمرأة المغولية فى المجتمع المغولى بصفة عامة ، ومع سرقويتى بيكى بصفة خاصة .

على أن الانجاز الحضارى الرائع الذى يذكر لهذه المرأة (سرقويتى بيكى) ويعتبر اسهامًا علمياً ومعمارياً فى آن واحد لأول مرة فى تاريخ

---

(١) نص ميرخواند كما ذكره برتولد : تركستان ، ص٦٨٧ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٢١٩ .

المغول بصفة عامة ، وتاريخ المرأة المغولية بصفة خاصة ، عندما تبرعت بألف بالش [١] من الفضة لاقامة مدرسة فى بخارى على أن يتولى أمرها شيخ الاسلام سيف الدين الباخرزى ، وأمرت بشراء الضياع ، ووقفها على هذه المدرسة للانفاق عليها ، واختير لها المدرسون وطلاب العلم [٢] . وقد أثنى الجوينى ثناءاً عطراً على الأبنية التى شيدت على عهد حاكم بلاد الأويغور مسعود بيك ، فى بخارى ، وخص بالذكر المدرسة الخانية التى بنيت على نفقة الملكة سورقتيتى بيكى[٣] (سرقويتى بيكى) ، بالاضافة إلي المدرسة المسعودية التى بنيت على نفقة مسعود بيك . وكانت المدرستان على حد قول الجوينى ، تزينان ميدان بخارى [٤] ، ، وتضم كل منهما ألف طالب ينهلون العلم من المدرستين على أيدى العلماء المسلمين بالمدرسة ، ويشيد الجوينى بالمدرستين عندما ذكر أنهما رفعا من مكانة مدينة بخارى وسط المدن الاسلامية الأخرى [٥] .

وهكذا أسهمت سرقويتى بيكى فى عمران مدينة بخارى وفى حضارتها العلمية بهذه المدرسة التى كانت تمثل اسهاماً علمياً وثقافياً وفكرياً من قبل المرأة المغولية في الحضارة الاسلامية . ولم تكتف بيكى

---

(١) بالش بمعنى صرة أو بدرة أو كيس من الذهب أو الفضة . وقد ورد فى تاريخ جهانكشاى للجوينى أن البالش عبارة عن خمسمائة مثقال من الذهب أو الفضة . وقيمة البالش الفضى فى المناطق التى كان يسيطر عليها المغول تبلغ ٧٥ دينار . راجع تعليق د. فؤاد الصياد ضمن كتاب رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٧٣ حاشية ٣ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٨ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ،ج١ ص١٢٠ .

(٤) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٢٠ .

(٥) الجرينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٢٠ .

بذلك ، بل تذكر رواية مؤرخ المغول أن سرقويتي بيكى كانت توالى ارسال الصدقات إلى الأطراف والنواحى ، وتنفق الأموال على المساكين والفقراء من المسلمين ، وظلت تقدم الخير الكثير إلى العقيدة الاسلامية والمسلمين حتى وفاتها عام ٦٤٩ هـ / ١٢٥١م [١] . وبذلك استطاعت سرقويتى بيكى أن تثبت أن المرأة المغولية قادرة على الاسهام الحضارى فى حضارات الشعوب التى كانت خاضعة للامبراطورية المغولية وقتذاك .

٤- دور المرأة المغولية فى المجال الاجتماعى :

احتوت الياسا الجنكيزخانية على مواد نظمت الحياة العائلية الاجتماعية فى المجتمع المغولى ، بحيث أصبحت المرأة فى ظل هذه المواد القانونية تتمتع بحرية كبيرة ، واستقلال واسع ، واحترام عظيم فى المجتمع المغولى ، وذلك على النحو الذى أكده أيضاً الرحالة المغربى ابن بطوطة [٢] . وقد ظل المغول حتى بعد دخولهم فى الاسلام يحتفظون للمرأة بمركزها الممتاز ، وشاهد الرحالة ابن بطوطة ذلك فى آسيا الصغرى وفى بلاد القبجاق (مغول القبيلة الذهبية) ، خاصة فى عصر السلطان المغولى محمد أوزبك ، حيث يظهر ابن بطوطة تعجبه واندهاشه مما كانت عليه المرأة فى تلك المجتمعات ، فيقول أن النساء المغوليات القبشاقيات (القبجاقيات) سافرات الوجوه والرؤوس لا يحتجبن ، ويحضرن مجالس الرجال ، وقد تسير المرأة مع زوجها ، فيظنه من يراه أنه أحد خدامها [٣] ، ويؤكد ابن أيبك الدوادارى على ما ذكره ابن بطوطه

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٨ .

(٢) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣.

(٣) ابن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٤ .

من عظم شأن المغوليات فى المجتمع وفى جميع نواحى الحياة فيه ، عندما ذكر بأن هؤلاء المغول أو التتار أمورهم راجعة إلى نسائهم بخلاف المسلمين (١) .

والمعروف أنه كان للمرأة المغولية حرية التصرف فى أملاكها وما ترثه من زوجها . وإلى جانب ذلك كان التقاليد تقضى بأن المرأة من الطبقات الشريفة لا يجوز لها الزواج من رجل أقل منها حسباً (٢) .

ويحدثنا الرحالة ابن بطوطة أثناء زيارته لمملكة مغول القبيلة الذهبية (القبشاق) عن طبقية المجتمع هناك ، وأن النساء أنفسهن ينقسمن إلى ثلاث طبقات فى المجتمع تتميز كل واحدة من هاتيك الطبقات عن الأخرى (٣) . فهناك طبقة نساء الخان المغولي الحاكم ، حيث يذكر بأن كل ملكة (أوخاتون) تركب في عربة (وهذه العربة بمثابة بيت لها أو أحد بيوتاتها العديدة) ، فتجلس وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولون خاتون أى وزيرة الملكة ، عن شمالها امرأة أخرى تسمى كجك خاتون أى حاجبة الملكة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات ، فائقات الحسن والجمال ، ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهما (٤) .

أما نساء الطبقة الثانية فهن نساء الأمراء . ونساء هذه الطبقة أيضاً على جانب كبير من الأهمية وعلو المكانة الاجتماعية ، كما أكد ابن

---

(١) إبن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٩ المعروف بإسم الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق رويمر ، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠ ، ٢٦٩ .

(٢) د. سعد زغلول: الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٦ .

(٣) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ .

(٤) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٦ .

بطوطة ، فقد كانت الواحدة منهن تخرج من بيتها لتزور بيت صديقتها أو لقضاء بعض شئوونها أو للتنزة ، أو تنزل من عربتها بعد رحلة تطول أو تقصر ، وهى كلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وبين أيديها أربع جوار فاتنات الحسن ، بديعات الجمال ، وفى هذه الحالة تمشى المرأة المغولية وهى متبخترة ، وفى جلال عظيم [1] ، يزداد أو يقل حسب مكانتها ومكانة زوجها .

أما نساء الطبقة الثالثة ، فهن نساء التجار والباعة وأصحاب الأسواق، وقد شاهدهن ابن بطوطة أيضاً كما شاهد غيرهن . ويحدثنا أن المرأة من نساء هذه الطبقة تكون فى عربة من عرباتها الخاصة ، والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث أو الأربع من الجوارى وقد جعلن خصيصاً لرفع أذيال ثيابها وقت نزولها أو تجوالها وفى حلها وترحالها ، وتأتى إحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية [2] . وكانت المرأة المغولية تخرج بنفسها كى تبيع وتشترى فى الأسواق على النحو الذى أكده ابن بطوطة ، وهو مصدرنا الرئيسى فى هذه الجزئيات الخاصة بنشاط المرأة المغولية الاجتماعى [3] .

وكان من وظائف المرأة المغولية أيضًا صنع الثياب الجلدية ، وما يصنع من الجلد كالأحذية والأحزمة كان أيضًا خاصًا بها . وكان من النساء أيضًا من يقمن بحلب وضرب الأبقار ، وكانت هذه من وظائف النساء الرئيسية ، لأن الرجال هم الذين يقومون بحلب وضرب الأفراس ،

---

(١) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ .

(٢) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ . سنعرض لهذا الأمر ثانية عن الحديث عن لباس وحلى المرأة المغولية .

(٣) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ .

وهذه العملية كانت من وظائف الرجال الرئيسية كما يذكر الرحالة الأوربى وليم روبرك [١] . ويبدو أن المرأة المغولية كانت سيدة بيت من الدرجة الأولى ، فكان الجندى المغولى يترك شئونه وشئون أسرته إلى حنكة نسائه ومهارتهن [٢] . وقد نصت أحد قوانين الياسا أنه فى حالة غياب الجند فى ميادين القتال فإن نسائهم ملزمات بالقيام بنفس الأعمال التى كان يقوم بها الرجال وقت السلم [٣] .

وقد شاركت المرأة فى العديد من المناسبات الدينية والاجتماعية فى المجتمع المغولى . فابن بطوطة يروى لنا أنه أثناء وجوده فى محلة السلطان محمد أوزبك خان مغول القبشاق ، فإنه فى صباح العيد [٤] ، ركب السلطان أوزبك وكان يرافقه ابنته الملكة أيت كججك ومعه زوجاته الخواتين الأربع فى عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب ، والخيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب أيضاً [٥] ، وأنهن حضرن أيضاً الوليمة التى أقيمت بمناسبة العيد ، وشاركن في الطعام والشراب والغناء [٦] . كما كانت المرأة المغولية تخرج للصيد مع زوجها مثلما كانت تفعل موكاخاتون عندما كانت تخرج دائماً للصيد مع زوجها القاآن أوكتاى[٧] .

---

(١) Rubruck,the Journey, pp. 95 - 96.

(٢) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص٢١٤ .

(٣) راجع هذه الفقرة من الياسا كما ذكرت فى د. العرينى : المغول ، ص٦٣ بند رقم ١٣ .

(٤) لم يحدد إبن بطوطة أى عيد هو الفطر أم عيد الأضحى .

(٥) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٥٢.

(٦) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٥٣ .

(٧) رشيد الدين : جامع التواريخ . ص٧٨ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٩٦ . ويلاحظ أن القاآن عادة كان يشتغل بالصيد فى أشهر الشتاء الثلاثة من كل سنة . رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٨٢ ، ٢٠٢ .

كما سمح للمرأة المغولية أيضًا بممارسة فن الغناء والموسيقى . وكان للمغول موسيقى وغناء خاص بهم كما يذكر الجوينى [1] . ويبدو أن المغوليات برعن فى فن الموسيقى والغناء ، فكان من ضمن الهدايا المرسلة من أبى سعيد إيلخان فارس إلى السلطان المملوكى الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م مغنيتين مغوليتين [2] . وهناك نص أورده ابن بطوطة أثناء رحلته فى بلاد الأوزبك (خانات القبيلة الذهبية) وشرق أوربا وبالتحديد أثناء انتقاله من القرم إلى محله السلطان أوزبك عندما نزل بمدينة تسمى آراق [3] ، ونزل ضيفًا على أمير المدينة ، وهناك سمع وشاهد ألواناً من الغناء والطرب المغولى القبجاقى [4] . واستناداً على هذا النص ، ونص ابن أيبك الدوادارى من قبل ، نرجح أن فن الغناء والموسيقى المغولى قد انتقل على أيدى الجوارى المغوليات من بلاد الأوزبك إلى مصر فى العصر المملوكى [5] . وتأكد ذلك أيضًا عندما استولى المغول على مدينة بخارى فى عهد چنكيزخان ، حيث أقتحموا المدينة ، وأمروا باحضار مغنيات المدينة حيث علمهن نساء

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١١٧ .

(٢) إبن أيبك الدوادارى : الدر الفاخر ، ص٣٦١ . أيضًا راجع الدراسة التى قمنا بها حول التأثيرات المغولية على المجتمع المصرى فى العصر المملوكى . د. صلاح نوار : الطوائف المغولية وتأثيرها ، ص١١٨ – ١١٣ (الجزء الخاص بالتأثيرات المغولية الإجتماعية على الحياة الإجتماعية فى مصر) .

(٣) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٠ ،. وتسمى هذه المدينة الآن آزوف . وتقع على الطرف الشرقى لبحر آزوف . د. حسين مؤنس : إبن بطوطة ورحلاته ، ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٠م ، ص١٣٨ .

(٤) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤١ .

(٥) د. صلاح نوار : الطوائف المغولية ، ص١٢٦ .

المغول أصول الغناء والموسيقى المغولية (١) .

وعلى قدر الحرية والمكانة الاجتماعية التى تمتعت بها المرأة المغولية فى المجتمع ، إلا أنه يلاحظ أن قوانين الياسا نفسها لم تجامل المرأة ولم ترعى جانبها في توقيع العقوبة عليها إذا أجرمت فدست السم لزوجها فتكون عقوبتها الموت ، كما حرمت عليها الاشتغال بالسحر أو أن تسحر فتكون عقوبتها القتل أسوة بالرجال تماماً (٢) ، وكان قتلهن يتم فى الغالب بإغراقهن فى الماء . وقد نفذ المغول حكم الياسا هذا فى حق ساحر وساحرة أثناء وجود وليم روبروك فى بلاط القاآن منكو ووصف لنا ذلك وصفاً جيداً (٣) . كما لم يتورع المغول أيضًا فى عهد القاآن كيوك من اعدام فاطمة خاتون الحاجبة الخاصة بتوراكيناخاتون أم كيوك وكاتمة أسرارها ، عندما أتهمت بممارسة السحر وأنها قضت على كوتان شقيق كيوك قاآن عن طريق السحر ، وحيث وضعوها فى جوال وقذفوا بها فى أليم (٤) .

ويبدو أنه كانت تحدث الكثير من المشاكل الاجتماعية داخل أفراد الأسرة المغولية ، فيروى مؤرخ المغول أنه كثيراً ما كانت تثور الخلافات والمنازعات بين الزوجين بسبب الملة والعقيدة (٥) مثلما حدث من خلاف

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١١٦ – ١١٧ .

(٢) Rubruck, the Journey, pp.194 - 200, De Bridia, the vinlond map and the Tartar relation,ed,by R.A skelton, yale university press.1965,p. 94.

(٣) Rubruck,the Journey ,pp .199 - 200 .

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٧٩ ؛ الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٩ .

بين قيان خاتون التى اعتنقت الاسلام مع زوجها بايلاق الذى أنكر عليها اسلامها لأنه كان أويغورياً ، حيث أخبرت أباها وأمها وأخواتها وطلبت منهن التدخل لحسم هذه الخلافات الزوجية (١) .

والمرأة المغولية كصاحبة المنزل ومسئولة عن العناية به ، كانت تساعد زوجها فى بناء أو صنع المنزل الذى كان يصنع بصفة أساسية من أغصان الأشجار ، واختلف حجم المنزل المغولى فكان يتراوح ما بين الصغير والكبير والمتوسط وكان المغولى ومعه زوجته يقيمان منزلهما على الأرض ، وغالبًا ما يكون هذا النوع من المنازل صغير الحجم لكى يسهل عليه رفعه ليوضع على عربة صغيرة مخصصة لذلك يجرها حيوان واحد ، لنقله أثناء السفر أو التنقل أو الترحال ، ولذلك فهم لا يعانون من بناء منازلهم عندما يحطون رحالهم ، وقد يقوم بانزال بيته هذا من على العربة فيجعله على الأرض خاصة فى المنازل التى روعى فيها صغر الحجم ، وفى هذه الحالة تساعده زوجته أو زوجاته اللائى كن يقمن بهذه العملية فى أغلب الحالات ، إذ أن هذا النوع من العمل من اختصاص النساء عندهم (٢) . ويؤكد ذلك ما يصفه لنا الرحالة الأوربى وليم روبرك، الذى سبق الرحالة ابن بطوطة بما يقارب مائة سنة ، عندما يذكر أن المرأة المغولية تقوم ببناء بيت خاص بها على عربة تعرف بالعربة المنزلية . ويصف لنا روبرك هذا المنزل بأنه غاية فى الاحكام وأنه عمل متقن ، وأنه غاية فى الجمال ، بحيث صعب عليه أن يقوم برسم أو وصف كامل لجمال لهذا المنزل الذى تصنعه المرأة المغولية (٣) .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٢٩ .

(٢) Rubruck,the Journey, p.95.

(٣) Rubruck,the Journey pp.94 - 95.

ويذكر أحد المؤرخين المحدثين أنه بلغ من براعة المرأة المغولية فى بناء أو صنع بيتها أنه كانت فى استطاعتها أن تفكه ثم تحزمه كله فى ظرف ساعة أو اثنتين ، ثم تعيد بناءه بنفس السرعة(١) .

ويلاحظ أنه عندما يحط المغولى رحاله ، فإنه يقيم منازله متجهة على الدوام إلى ناحية الجنوب ، ثم تقوم الزوجة الكبرى (الزوجة الأولى) بإقامة منزلها فى أقصى الجهة الغربية من المخيم ، ثم يلى منزلها الزوجة التى تحتل المرتبة الثانية ، ثم التى تليها وهكذا حتى الزوجة الأخيرة ، التى يكون منزلها فى آخر المخيم من جهته الشرقية . ويذكر روبروك أنه كان يفصل كل بيت عن الآخر مسافة رمية حصاة (٢) .

وفيما يتعلق بوضع المرأة داخل البيت المغولى ، فيمكن أن نعتبر النصف الأيسر من المنزل (عندما يكون اتجاهه ناحية الجنوب) مكاناً مخصصاً لجلوس النساء سواء كن من نساء ومحارم صاحب الدار أو من النساء الزائرات ، فى حين نجد النصف الأيمن من ذلك المنزل مخصصاً للرجال(٣) . ويلاحظ أن سيدة البيت داخل منزلها كان لديها مسند (أو مخدة) مصنوعة من جلد الماعز ومحشوة من الداخل ، إما بالقش الناعم ، أو إما بصوف الأغنام أو بشعر الماعز الناعمين ، حيث تجعله فى مكان مرتفع قليلاً ، وعليه تمثال صغير متجهاً ناحية النساء . وكان يوضع عند المدخل إلى قسم النساء تمثال ومعه مجسده لضرع بقرة ، وهذا التمثال خاص بالنساء اللواتى يقمن بحلب وضرب الأبقار ، لأن هذه المهمة

---

(١) رالف لنتون : شجرة الحضارة ، ترجمة د. أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٨٥م ، ج١ ص١٧١ .

(٢) Rubruck,the Journey, p.94.

(٣) Rubruck,the Journey, p.95.

تعتبر من وظائف النساء الرئيسية .

هذا وقد انتشرت فى المجتمع المغولى العديد من الأمراض الاجتماعية تمثلت فى شكل خرافات وتقاليد لها صلة وطيدة بالمرأة المغولية . فمن الخرافات التى انتشرت أنهم كانوا يختارون أربعين فتاة عذراء من أجمل بناء الأسرات النبيلة والقادة العسكريين ثم يلبسوهن أفخر الثياب ويزينوهن بالجواهر والحلى والحلل الغالية مع أثمن أنواع الجياد ، ثم يتم قتلهن فى النهاية وقتل جيادهن معتقدين أن ذلك الاجراء ارضاء لروح چنكيزخان (١) . والمرجح أن هذا التقليد كان مبدأ ثابت عندهم(٢). ولذلك يذكر ادوارد براون .Brown. E أن وثنية المغول كانت تظهر فى أمور تثير النفوس كاختيارهم للفتيات الحسناوات ، ثم قتلهن وتقديمهن قرباناً لروح الأباطرة (٣) ، وكقتل جميع الذين يصيبهم حظهم العاثر بأن يصادفوا جنازة القاآن المغولى أثناء نقلها إلى مثواها الأخير خشية أن يتسرب نبأ موته قبل اعلانه رسمياً (٤) .

٥- عادات وتقاليد الزواج ، وظاهرة تعدد الزوجات عند المغول :

أما عن الزواج وتقاليد الزواج عند المغول، فرغم تحرر المرأة المغولية،

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٨٠ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٣٠ .

(٢) هكذا يؤكد د. العرينى : المغول ،ص١٤٦ ؛ أيضًا براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص٥٦٧ ؛ د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٥٢ – ٢٥٣ .

(٣) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص٥٦٧ ، يؤيده د. سعد الغامدى : المغول . بيئتهم الطبيعية ، ص١٧٣ – ١٧٤ .

(٤) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص٥٦٧ ؛ أيضًا D'ohsson, Histoire des Mongols, To. I, p. 384 .

وتمتعها بنفوذ عظيم ، فإن المغول عرفوا ، كما هو الحال بين الشعوب البدائية ، تعدد الزوجات ومارسوه بحرية قبل الاسلام وبعد اسلامهم [١] . وكان الرجل منهم يتزوج ما يحلو له من النساء ، إلا أن الزوجة الأولى كانت لها المكانة الأكبر بين الزوجات الأخريات فتعدد الزوجات كانت ظاهرة شائعة بل ومؤكدة داخل المجتمع المغولى [٢] .

ولقد كان المغول يعتبرون النساء ضمن التركة الأبوية يتوارثهم الأبن عن أبيه ، والأخ الأصغر عن أخيه الأكبر ، فكان على الابن رعاية أرامل والده ، فهو يتزوجهن عادة إلا والدته بالطبع [٣] . وكذلك عندما يتوفى الأخ الأكبر فيتزوج الأخ الأصغر أرامله [٤] . ويرى أحد المؤرخين المحدثين الأجلاء أن هذا النوع من الزواج هو الذى عرفه العرب فى الجاهلية وسموه « نكاح المقت » بالنسبة للزواج بأرملة الوالد التى يرثها الابن وهو الأمر الذى حرمه القرآن [٥] . ويعطى أستاذنا الدكتور سعد زغلول تفسيراً لذلك بقوله أنه ربما كانت الحكمة من ذلك هو المحافظة على ثروة الأسرة من الضياع ، إذ من المعروف أنه كان للمرأة حرية التصرف فى أملاكها وما ترثه عن زوجها [٦] .

---

(١) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب الإسكندرية ، مجلد ١٠ . ص٧٥ .

(٢) يلاحظ أن تعدد الزوجات عند المغول ما زال موجوداً حتى العصر الحديث فى أصلابهم. د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٥ حاشية ٥ .

(٣) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ، ص٧٥ .

(٤) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب اسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٥ ؛ كذلك D'ohsson, Histoire des Mongols, To. I, p. 14 .

(٥) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٥ . يقول فى التنزيل « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » سورة النساء ، آية ١٩ .

(٦) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٦ .

وتأكيداً على مبدأ تعدد الزوجات عند المغول ما ذكره جنكيزخان لهم ضمن قوانين الياسا أنه قال « أن كل من أحب امرأة بنتاً أو غيرها لا يمنع من التزوج بها ولو كان زبالاً والمرأة بنت ملك » . ويذكر ابن شاكر الكتبى أن الهدف من وضع جنكيزخان هذا المبدأ أن يتناكح المغول ويتضاعف نسلهم ويكثر عددهم [١] .

وكيفما كان الأمر فقد كان للخان الأعظم أن يتزوج بمن يشاء من النساء ، أخذاً بمبدأ تعدد الزوجات ، وكانت العادة المتبعة أنه إذا تغلب الخان على ملك أو أمير أو عقد معه اتحاداً أو تحالفاً فإنه كان يتزوج من ابنته أو أخته ، أما إذا تغلب عليه وقتله فكان يتزوج من امرأته [٢] كنوع من الانتقام من أعدائهم . وقد سار جنكيزخان على هذه الطريقة ، فيقال أن زوجاته بلغ عددهن خمسمائة زوجة من بنات الأمراء والخانات[٣] . ولا شك أن هذه مبالغة باترة .

ويلاحظ أنه لما كان المغول يتزوجوا من عدة نساء خاصة فى نطاق الأسرة الحاكمة ، فإنهم كانوا يفضلون أبنائهم من الزوجة التى يؤثرونها على غيرها من النساء [٤] ، والغالب أن ذلك كان مع الزوجة الأولى التى كانت هى الخاتون (الملكة) وتتمتع بحقوق وامتيازات كبيرة ، كما أن لها الحق فى أن تكون لها ثروة وممتلكات خاصة بها ، ولم يكن للزوج أى

---

(١) إبن شاكر الكتبى : فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق د. إحسان عباس ط. بيروت ١٩٧٣ ، المجلد الأول ، ص٣٠٢ .

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ، ص٢٤٨ .

(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٤٨ ؛ د. حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص٢١١ .

(٤) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص٢٤٨ .

سلطان على تلك الثروة أو الممتلكات (١) . وبعد موت الخان كانت تؤول جميع نسائه إلى أكبر أبنائه ، وله الحق فى أن يتزوج بمن يشاء منهن باستثناء والدته ، كما أن له الحق أن يهبهن لأصدقائه أو يطلق سراحهن (٢) .

وبجانب الزواج وتعدد الزوجات فى المجتمع المغولى ، شجع المغول الزنى بزوجات الآخر ، ولم يجدوا غضاضة فى ذلك ، فلدينا رواية لمؤرخ المغول رشيد الدين يشير فيها إلى قيام أحد أبناء جغتاى ، أثناء إحدى المناسبات ، حيث كان نساء ما يعرف بالوزراء العظام (أيوا وقلانان) كن يجتمعن للعمل فى المعسكرات ، بالذهاب إلى هناك ، فأختلى بواحدة منهن ذات جمال ، وجامعها ثم دار بخلده أنه من الممكن أن تكون قد حملت منه ، فأمر أن تنفصل هذه المرأة عن زوجها ، وتوضع تحت العناية والمراقبة . واتفق أن حملت منه ، ووضعت أبناً له يسمى بورى ، ثم أعيدت إلى زوجها بعد ذلك . وهذه الرواية تتفق مع ما ذكره بعض المؤرخين ومنهم السيوطى (٣) من أن المغول لا يعرفون نكاحًا ، وأن المرأة يأتيها أكثر من واحد . ولدينا رواية غريبة ذكرها الجوينى وتصف طريقة الزواج عند المغول ، واختيار الزوجات ، فيذكر أنه من ضمن نصوص الياسا أنهم يجمعون كل فتاة حسناء من الأبكار المرافقات للجيش عشرة عشرة ومائة مائة فيختار أمير التومان (أى العشرة آلاف) منهن عدداً فيرسلهن إلى الخان أو إلى الأمراء حيث ينتقى منهن ما يرون لهم وتقر أعينهم بهم ، ويطبقون عليهم ما جاء فى القرآن « فإمساك بمعروف»

---

(١) د. سعد زغلول : الترك ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ١٠ ص٧٦ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٩٦ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ط. القاهرة ١٣٥١ هـ ، الطبعة الأولى ، ص٣١٢ .

أو تسريح بإحسان ، [١] .

ويشير الرحالة البندقى ماركوبولو إلى انتشار خرافات وعادات مثيرة للدهشة كانت شائعة بين المغول فيما يخص الزواج ، وهو أنهم يزوجون موتاهم الذين لم يتزوجوا فى الحياة الدنيا . ويشير ماركوبولو فى روايته إلى عادة الزواج بين الأطفال المتوفين الذين لم يتزوجوا قبل وفاتهم . فإذا كان لرجل ابن وآخر ابنه ، وكانا ميتين منذ بضعة أعوام ، فإن لديهم عادة وهى عقد زواج بين طفليهما المتوفين ، ومنح البنت للشاب . وفى نفس الوقت يرسمون على قطع من الورق أشكالاً بشرية لتمثل الخدم مع الخيل وغيره ، والثياب من جميع الأنواع والنقود وقطع من الأثاث ، ثم يلقون بكل هذا فى النار يشعلوها خصيصاً لهذا الغرض ، ومعها عقد الزواج الذى يكتب بما هو معروف عندهم ، حتى ينقل الدخان المتصاعد هذه الأشياء إلى أطفالهم فى العالم الآخر ، وليصحبا هناك زوجًا وزوجة بالشكل المطابق للعرف فى الحياة الدنيا . وبعد هذا التقليد يعتبر الوالدان والوالداتان أنفسهم أصهاراً ، كأن هناك رابطة حقيقية تربط بين أبنائهم الأحياء [٢] .

ويبدو أن المغول قد اعتادوا على الزواج من خارج قبيلتهم ، أما عن طريق التراضى أو المفاوضات ، أو عن طريق الاختطاف مثلما حدث فى زواج چنكيزخان ووالده يسوكاى . فالزواج داخل القبيلة الواحدة ، كان يتنافى مع تقاليد الرعاة من الترك والمغول [٣] . ولذلك لا يقابلنا حالات

---

(١) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص٦٧ . والآية الكريمة فى سورة البقرة (آية ٢٢٩) .

(٢) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو ، ترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها وليم مارسدن ، وترجمها للعربية عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص١٥٠ .

(٣) برتولد : تركستان ، ص٦٥١ .

للزواج داخل العشيرة (باستثناء حالة واحدة سنعرض لها بعد قليل) . وفى الحولية المغولية الصينية (التاريخ السرى) يذهب المقاتلون المغول للحصول على زوجات لهم من بين العشائر الأخرى ، وأحياناً يأخذ المقاتل عروساً لابنه من عشيرة أمه ، وكان تقديم العروس لأهل البيت الحاكم من امتيازات قبيلة أو قبائل معينة (١) .

وقد حرص المغول على تأكيد هذا العرف لدرجة أن كل من يخالفه يتعرض لعقاب شديد ، قد تدفع فيه فتيات القبيلة شرفهن أو أعراضهن ثمناً باهظاً لذلك . ولدينا رواية لمؤرخ المغول تؤكد فيه هذه الحقيقة عندما يشير فى روايته إلى المعاملة الوحشية التى تعرضت لها قبيلة الأويرات المغولية بأكملها على أيدى القاآن أوكتاى ، عندما أصدر قراراً بتزويج بنات هذه القبيلة من رجال قبيلة أخرى ، جرياً على عرف المغول وتقاليدهم فى الزواج ، فسارع أهلهن بتزويجهن من نفس رجال القبيلة (أى داخل القبيلة الواحدة) ، فلما علم أوكتاى بذلك أمر باحضار بنات القبيلة كلهن ممن تجاوزن السابعة ، وأن يعتدى عليهن بصورة وحشية أمام أنظار آبائهن وأخواتهن وبعولتهن ، ثم أمر بتفريقهن بعد ذلك . فأُخذ البعض منهن إلى البلاط كمحظيات ، ووزع الباقى على الأمراء وعلى كل الحاضرين من المغول والمسلمين (٢) . وبذلك كان هدف القاآن من ذلك معاقبة تلك القبيلة لتجاوزها العرف والتقاليد الشعبية السائدة عند المغول .

ونحن لا نعرف إذا كان المغول ، بعد اختلاطهم بالأمم والحضارات

---

(١) برتولد : تركستان ، ص٦٥١ حاشية رقم ٧ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص٩٢ – ٩٣ ويؤيد تلك الرواية D'ohsson, Histoire des Mongols, To. II, p. 98 .

المتمدينة مثل الحضارة الاسلامية ، قد تأثروا بها فى تقاليد زواجهم أو أنهم قد تأثروا بمبادئ الشريعة الاسلامية الغراء . ولكن لدينا رواية ذكرها مؤرخ المغول تشير إلى أن جغتاى بعد وفاة زوجته ييسولون خاتون قد تزوج من أختها دوكان خاتون (١) . وهذه الرواية من الأهمية بمكان لدينا لأنها تؤكد على أن المغول لم يجمعوا بين الأختين فى الزواج فى حياتهما ، وذلك يعتبر تشبهًا بالمسلمين وتأثرًا بالشريعة الاسلامية التى حرمت الجمع بين الأختين إلا إذا توفيت إحداهما .

ومادمنا بصدد الحديث عن موضوع تأثير الشريعة الاسلامية على عادات وتقاليد الزواج عند المغول ، فيلاحظ أن المغول الذين اعتنقوا الاسلام فيما بعد سواء مغول القبجاق ، أو مغول فارس ، فإن بعضهم لم يطبق الشريعة الاسلامية عند زواجه ، بل خالفوها ، وينطبق ذلك على خاناتهم وملوكهم . فالسلطان أبو سعيد بهادر بن أولجايتوخان مغول القبجاق ، الذى سبق الحديث عنه ، قد تزوج من بغداد خاتون ، بعد أن طلقها من زوجها الأمير حسن بزرك (حسن الجلائرى) واحتلت لديه مكانة كبيرة (٢) . ورغم أن السلطان أبى سعيد كان مسلمًا ويعرف أن الاسلام يحرم أن يتزوج الرجل بالمرأة وابنه أخيها فى وقت واحد ، إلا أنه فعل ذلك عندما وقع صريع هوى ابنه أخى بغداد خاتون المسماة دلشادخاتون فتزوجها (٣) ، رغم مخالفة هذا لنصوص الشريعة الاسلامية الغراء .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص١٣٥ .

(٢) إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ ؛ إبن حجر العسقلانى ؛ الدرر الكامنة ، ١ ص٤٨٠، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٧٦ .

(٣) إبن بطوطة : رحلته ، ص٢٤٣ .

ولا ينطبق هذا الأمر فقط على السلطان أبى سعيد ، بل كاد هذا الأمر أن يفعله السلطان محمود غازان خان مغول فارس (داستان غازان خان) (١) (٦٩٣ - ٧٠٢ هـ / ١٢٩٥ - ١٣٠٤م) عندما ذكر صاحب كتاب الدرر الكامنة أن غازان عندما أسلم قيل له أن الاسلام يحرم نكاح نساء الآباء ، وكان قد استضاف نساء أبيه (أرغون) إلى نسائه ، وكانت أحبهن إلى قلبه تسمى يلغان خاتون ، وهى أكبر نساء أبيه ، فهم أن يرتد عن الاسلام ليتزوجها ، فقال له بعض خواصه « أن أباك كان كافراً ولم تكن يلغان خاتون معه فى عقد نكاح صحيح إنما كان مسافحاً بها فأعقد أنت عليها ، فإنها تحل لك ، ففعل ، ولولا ذلك لأرتد عن الاسلام ، وأستحسن ذلك من الذى أفتاه به (٢) .

وهذه الروايات وغيرها تؤكد على أن المغول رغم اسلامهم إلا أنهم لم ينسوا عاداتهم وعادات آبائهم وأجدادهم فى الزواج ، لأن منهم من نشأ على التمسك بالياسا الكبرى وعادات وتقاليد المغول مما تضمنته الياسا ، وينطبق ذلك بصفة خاصة على قبائل مغول القبجاق الذهبية ، ويؤكد ذلك ما ذكره لنا القلقشندى فى ذلك النص الرائع بقوله « أن ملوك هذه الطائفة (مغول القبجاق المسلمين) مع ظهور الاسلام فيهم واقرارهم بالشهادتين يخالفون أحكامها فى كثير من الأمور ، واقفون مع ياسة جنكيزخان التى قررها لهم وقوف غيرهم من أتباعه ، مع مؤاخذة بعضهم بعضاً أشد المؤاخذة فى الكذب والزنا ونبذ المواثيق والعهود » (٣) .

---

(١) راجع المؤلف القيم الذى كتبه العالم الجليل الدكتور فؤاد الصياد وعنوانه السلطان محمود غازان خان وإعتناقه الإسلام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م .

(٢) إبن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج١ ص٢١٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ص٤٧٤ .

ثالثا : لباس المرأة المغولية وحليها فى المجتمع المغولى :

يلاحظ أن المصادر المتاحة لدينا وعلى رأسها مصادر المغول لا تسعفنا بمعلومات كافية عن ملابس أو زى المرأة المغولية وحليها فى المجتمع المغولى اللهم إلا بعض النتف والشذرات المبعثرة والقليلة للغاية التى لا تشفى غليل الباحث ، مثلما أورده المؤرخ رشيد الدين فى ذلك النص الفريد والمختصر حول لباس سيدات الطبقة الحاكمة ، بحيث لا يستطيع الباحث أن يكون صورة متكاملة عن لباس وحلى المرأة المغولية ، ولذلك اعتمدنا فى هذه الجزئية من الدراسة على ما ذكره الرحالة المسلمون مثل ابن بطوطة المغربى ، والرحالة الأوربيون وعلى رأسهم وليم روبروك ، ويوحنا الكاربينى ، وهم الذين زاروا ممالك المغول وتركوا لنا صورة تكاد تكون معبرة ودقيقة وواقعية عن لباس المرأة المغولية .

من المعروف أن لباس المغولى الذى عاش فى منغوليا قبل وبعد ظهور المغول ، وبروزهم كقوة ذات سيادة وسلطة عالمية ، كان مختلفًا عن لباس أخيه الذى خرج من عزلته فى منغوليا لغزو أقاليم وبلدان شرقية وغربية . كما يختلف لباس الرجل الفقير عن لباس الغنى ، من حيث النوعية أو الكمية ، كما يختلف لباس الرجل عما تلبسه المرأة سواء المتزوجة أو غير المتزوجة ، كما تختلف طريقة ارتداء ونوعية اللباس الذى يرتديه ويقيه لفحات الحرارة الشديدة فى فصول الصيف ، عنه فى شدة البرد السيبرى القارص فى فصل الشتاء .

وبصفة عامة فإن الانسان المغولى الذى كان يقطن منغوليا ، كان يرتدى ملابس ذات طابع متجانس ، فهم فى مبدأ أمرهم وداخل مجتمعهم لم يعرفوا وجود رداءاً واحداً يغطى معظم الجسم ، ولكنهم اعتمدوا اعتماداً كليًا فى لباسهم على جلود الحيوانات سواء التى

يقومون بتربيتها أو التى تنالها رماحهم ، فهم يلبسون ستره ، على شكل بلوزة قصيرة مصنوعة من البَقرْم أو من المخمل ، أو من مادة ذات تشكيلات مطرزة . وهذا النوع من اللباس يشبه العباءة إلى حد كبير ، لأنه يكون مفتوح من الأمام ، ولكن له أيضًا فتحة من الجهة اليسرى حتى الخصر ، ثم يثنى من على منطقة الصدر ، فيربط من الجهة اليسرى برباط واحد ، أما الجهة اليمنى فإنه يحزم بثلاثة خيوط (١).

ويلاحظ أن الرجال والنساء اللائى لم يتزوجن يرتدين نوعًا من اللباس شبيه بالثياب ، ولكنها مفتوحة من الخلف أو تكون على نفس النمط السابق ، وهذه الملابس مصنوعة من الفراء بشتى أنواعه ، فيجعل الجزء الشعرى منه إلى الخارج إذا لبس غالبًا فى الصيف ، وهذا اللباس يكون له ذيل من الخلف يصل فى طوله إلى الركبتين . وحرى بالذكر أن لباس المرأة المغولية المتزوجة كان يختلف عن لباس الغير متزوجة ، ولباس سيدات الطبقات الراقية اختلف عن زى سيدات الطبقة الفقيرة ، كما سنوضح بعد قليل .

أ- لباس المرأة المغولية المتزوجة وغير المتزوجة :

يختلف ملابس المرأة من حيث الكيفية لا النوعية ، عن ملابس زوجها وكذلك عن المرأة التى لم تتزوج بعد . فالمرأة المتزوجة ترتدى بلوزة طويلة ومفتوحة من الجهة الأمامية من أعلى إلى أسفل . ومن حيث النوعية والكمية فلم يوجد فرق بين ما تلبسه المرأة وما يلبسه الرجل . ولعل ما يميز بين الرجل والمرأة المتزوجة هو ما تلبسه الأخيرة على

---

(١) د. سعد الغامدى : جوانب من حياة المغول المعيشية ، مجلة كلية آداب إسكندرية ، مجلد ٣٧ ، ص١٤٦ ، معتمداً على نص روبروك .

رأسها ، وهذا الغطاء الذى ترتديه على رأسها يبلغ طوله ذراعًا ، ويصنع من اللحاء أو من أغصان الأشجار الرفيعة جداً أو من أى مادة شعرية يقدرون عليها . ويصنع هذا الغطاء بشكل ملفوف ، يزداد فى مساحة محيطة من أسفل إلى أعلى ، وينتهى فى القمة بشكل مدور . ثم يوضع فى نهايته عموداً أو قضيباً طويلاً ورقيقاً مصنوعاً من الذهب أو الفضة ، وغالبًا ما يكون من الخشب وتزين قمة هذا القضيب بريش الطاووس ، وجوانبه بأحجار كريمة ، ثم يثبت غطاء رأس المرأة هذا فى غطاء آخر تحته يصل حتى الكتفين (١) . وتقوم المرأة بعد ذلك بتغطية لباس رأسها الكبير هذا إما ببقرم أو بمخمل أو رداء من الحرير ، ولا يمكن أن تخرج أمام الرجل دون أن تكون مرتدية هذا الغطاء والذى يميزها عن غيرها من النساء الأخريات اللائى لم يتزوجن بعد (٢) .

أما النساء الثريات ذوات اليسار فإنهن يلبسن غطاء الرأس ذلك محلى بكثير من الزركشة ، ثم يثبتن ذلك القضيب بإحكام إلى أسفل بقلنسوة ذات فتحة إلى أعلى مخصصة لهذا الغرض . ويصف وليم روبروك شكل النساء اللواتى يرتدين هذا النوع من الغطاء على رأسهن قائلاً « بأنهن عندما يركبن جيادهن يظهرن للرائى عن بعيد وكأنهن كتيبة عسكرية ، يلبس كل فرد من أعضائها خوذة ، ويحمل رمحًا ، لأن ما يلبسنه على رؤوسهن يبدو وكأنه خوذ ، وتظهر تلك القضبان على ذُراها وكأنها رماح (٣) .

---

(١) Rubruck, The Journey, p. 102 .

(٢) Rubruck, The Journey, p. 102 .

(٣) Rubruck, The Journey, p. 102 .

ولدينا نص مختصر لرشيد الدين يشير فيه إلى لباس أو زى أحد خواتين الامبراطورية المغولية ، يتحدث فيه عن وفاة كيوك قاآن المغول ، وتوليه زوجته أوغول غايمش مقاليد الوصاية على العرش ، حيث أرسلت إليها على سبيل العزاء ، الثياب والبوغتاق (أو البوقتاق) (١) وهو عبارة عن قلنسوة ترصع بالجواهر ، وتلبسها سيدات المغول العريقات .

أما لباس المرأة الغير متزوجة ، فإنه لا يوجد فارق كبير بين ما تلبسه الفتاة وبين ما يلبسه الرجل كما ذكرنا آنفاً ، إلا أن شعرها يكون أكثر طولاً من الرجل . وفى اليوم التالى لزواجها تقوم بحلق شعرها من وسط الرأس إلى المقدمة ، ثم تضع عليه غطاء رأس المرأة المذكور آنفًا ، لتصبح متميزة عن الرجل ، وعن اللائى لم يتزوجن بعد ، ولتستطيع الظهور أمام الرجل كغيرها من النساء المتزوجات ، وبذلك تكون قد إنضمت إلى قافلة النساء المتزوجات (٢) .

وفيما يتعلق بقوام المرأة المغولية ، فيبدو أنها كانت تميل إلى السمنة منها إلى تناسق القوام ، وذلك لكثرة ما تأكله من مواد دهنية ، ويعتبرون المرأة جميلة كلما قلت فطاسة أنفها ، وصغر حجمه . ويذكر الرحالة الأوربى وليم روبروك بأن النساء المغوليات كن يشوهن أنفسهن عندما يصبغن وجوههن بأصباغ تجعل النظر إليهن مؤذياً للعين . ويبدو أن ذلك المنظر قد يكون جزءاً من تجملها والحفاظ على بشرة الوجه فى نظر

---

(١) يكتب هذا اللفظ المغولى بعدة أشكال : بغتاق أوبوقتاق أوبوغتاق أو بجتاق . رشيد الدين: جامع التواريخ ، ص١٨٥ .

(٢) Rubruck, The Journey, pp. 101 - 103, F.3, p. 101.

أيضاً راجع وصف كاربينى لذلك .

Carpini, The Mongol History, pp. 6 - 8 .

الرجل المغولى . والأمر الفريد ما ذكره وليم روبروك بأن المرة المغولية لا تلد طفلها وهى مضطجعة على الفراش ، بل يبدو أنها تلده واقفة (١) .

وعن الحلى التى كانت تتزين بها المرأة المغولية ، فلم تشر المصادر التى لدينا على الاطلاق إلى أنواع تلك الحلى بل صمتت عنها ، اللهم إلا تلك الاشارات العابرة التى ذكرها الجوينى فى موضعين من كتابه ، عندما يشير فى الموضع الأول إلى أن الأربعين فتاة اللاتى تم اختيارهن وارسالهن لخدمة چنكيزخان فى الآخرة قد تزين بالجواهر وأثمن ما عندهن من الحلى (٢) . والمرة الثانية عندما يشير إلى زوجة أوكتاى قاآن المسماة موكاخاتون ، عندما تبرعت لأحد الأشخاص ، أثناء مصاحبتها لزوجها فى رحلة الصيد ، بلؤلؤتين كالفرقدين أشبه بالقمر المنير ، كانت تزين بهما أذنيها (٣) ، بجانب تلك الاشارات السريعة التى ذكرها أيضًا الرحالة المغربى ابن بطوطة عن الحلى الخاصة بسيدات مغول القبشاق المسلمين ، وذلك أثناء رحلته إلى بلادهم أثناء سلطنة محمد أوزبك ، وهو الأمر الذى سنوضحه بعد قليل عند التعرض لملابس وحلى نساء المغول المسلمات .

ب- لباس وحلى نساء مغول القبجاق المسلمات :

يفهم من روايات الرحالة المغربى ابن بطوطة أن المغول بعد خروجهم من موطنهم الأصلى وأنسياحهم فى العالم المعروف وقتذاك وظهورهم كقوة عالمية سيطرت على مساحات كبيرة من الأراضى ،

---

(١) Rubruck, The Journey, p. 103 .

(٢) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ ص١٨٠ .

(٣) الجوينى : جهانكشاى ، ج١ص ١٩٦ .

واختلاطهم بشعوب وحضارات متقدمة ، أدت إلى تغير لباسهم من حيث النوعية والكمية لا الشكل العام ، فأصبحت المرأة المغولية أكثر أناقة ، وبديعة اللباس ، وغاية فى التزين والعناية الزائدة بمظهرها ، وأخذت ترفل فى لباس من الحرير الخالص ، يغطيها من الرأس إلى أخمص القدم ، له أذيال يرفعها من الأرض عدد من الجوارى اللائى يمشين وراء المرأة لهذا الغرض . وينطبق ذلك بصفة خاصة على النساء المغوليات اللائى اعتنقن الاسلام من مغول القبشاق (أو القبجاق) ، وممن كن يعشن فى التركستان وما وراء النهر حيث يشير ابن بطوطة إليهن بأنهن كن سافرات الوجه والرأس لا يحتجبن [١] .

ويحدثنا الرحالة ابن بطوطة عن زى وحلى نساء ثلاث طبقات فى المجتمع المغولى الجديد فى البلاد التى زارها أثناء سلطنة محمد أوزبك خان مغول القبشاق حيث تتميز أزياء وحلى كل واحدة من هذه الطبقات عن الأخرى[٢] ، وكانت أولى تلك الطبقات : طبقة نساء الخان المغولى الحاكم حيث يذكر أن كل ملكة من الخواتين تركب فى عربة (والعربة بمثابة إحدى بيوتاتها العديدة) فتجلس وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولون خاتون أى الوزيرة ، وعن شمالها امرأة أخرى تسمى كجك خاتون أى الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات، وهن فائقات الحسن والجمال . أما لباسها فيصفه قائلاً بأن ثيابها مصنوعة من الحرير المرصع بالجواهر على نمط ما يرتديه الروم . وإن لباس الوزيرة والحاجبة أيضًا مصنوع من الحرير المطرز بالذهب . أما اللباس

---

(١) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ .

(٢) يلاحظ أننا إضطررنا هنا إلى تكرار نص إبن بطوطة لأن طبيعة الدراسة أملت علينا ضرورة تكراره فى أكثر من موضوع لأنه يخدم العديد من النقاط فى هذا البحث .

الذى تضعه هذه المرأة (الخاتون) على رأسها يسمى البغطاق ويشبه التاج الصغير المكلل بالجوهر وهو يناسب رأس المرأة وحجمها . وقد زين قمته بريش الطواويس الزاهى الألوان . أما الحاجبة والوزيرة فعلى رأس كل واحدة منهن مقنعة مزركشة الحواش بالذهب والجوهر . وعلى رأس كل واحدة من الجوارى البنات قبعة مستطيلة ومخروطية الشكل يشبه الأقروف ، وفى أعلاها دائرة ذهبية مرصعة بالجوهر ، وريش الطواويس من فوقها (١) .

أما نساء الطبقة الثانية : فهن نساء الأمراء وكن على جانب كبير من الأهمية وعلو المكانة . وكانت الواحدة منهن تخرج من بيتها لتزور صديقة ، أو لقضاء بعض شئونها أو للتنزة ، أو تنزل من عربتها بعد رحلة طويلة أو قصيرة ، وبين أيديها أربع جوار ، فاتنات الحسن ، بديعات اللباس . وعندما تذهب إلى زوجها الأمير فتذهب وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ، ويكون معها منهن نحو ثلاثين جارية من جواريها يرفعن أذيال ثيابها من خلفها للحفاظ على نظافة ثيابها من تراب الأرض ، ويتم رفع أذيال هذه الملابس عن طريق عرى ملحقة بتلك الأذيال مخصصة لهذا الغرض ، حيث تمشى المرأة المغولية متبخترة مزهوة وفى جلال عظيم (٢) ، يقل أو يزيد حسب مكانتها ومكانة زوجها .

وفيما يتعلق بنساء الطبقة الثالث : وهن نساء التجار والباعة وأصحاب الأسواق ، فقد شاهدهن ابن بطوطة ويصفهن كما وصف غيرهن قائلاً

---

(١) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٦ – ٣٤٧ .

(٢) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ .

بأن المرأة من نساء هذه الطبقة تكون فى إحدى عرباتها الخاصة ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجوارى ، يرفعن أذيال ثيابها وقت نزولها أو تجوالها فى الأسواق ، وفى حلها وترحالها ، وعلى رأسها البغطاق وهو الأقروف (أى القبعة المستطيلة المخروطية الشكل) ، وقد رصع بالجواهر الثمينة ، وزين أعلاه بريش الطواويس ، ذى الألوان البديعة ، فتزداد المرأة جمالاً وروعة ، وهى بادية الوجه لأن نساء المغول أو الأتراك لا يحتجبن ، (١) .

وهكذا أظهرت تلك الدراسة مكانة وقيمة المرأة فى المجتمع المغولى ، وأثبتت قدرتها وكفاءتها فى كل جوانب الحياة فى المجتمع وفى كل الميادين سياسيًا وعسكريًا واجتماعيًا وحضاريًا وأيضاً دينياً ، وفى مجال العلاقات الدولية والسياسة الخارجية للدولة المغولية مع غيرها من القوى سواء كانت قوى صليبية أو قوى اسلامية ، وأظهرت براعتها فى ابرام الاتفاقات أو المعاهدات بين قاآنات المغول وقادتهم مع ملوك وأمراء وقادة الدول الأخرى .

وفى الختام أرجو أن أكون من خلال هذا البحث المتواضع قد وفقت فى القاء بعض الأضواء على موضوع لم تتطرق إليه معظم المراجع العربية والأوربية التى تناولت تاريخ المغول منذ ظهورهم فى منغوليا وحتى بداية غزواتهم للعالم المعروف وقتذاك ، وهو موضوع المرأة ودورها فى المجتمع المغولى طبقًا لمصادر المغول وقوانين الياسا . وأعترف بأننى ربما قصرت فى تناول بعض الموضوعات على نحو مفصل بسبب ندرة المادة التاريخية فيها ، أو أننى أطلت فى بعض

---

(١) إبن بطوطة : رحلته ، ص٣٤٣ .

الموضوعات على نحو مفصل بسبب توافر المادة التاريخية فيها ، إلا أننى أرجو أن أكون قد تمكنت من توضيح دور المرأة المغولية فى كل جوانب المجتمع المغولى ، حسب اجتهادنا الشخصى ، وما أمكننا استنتاجه استناداً إلى المصادر المتاحة لنا في موضوع من الموضوعات الشائكة والحساسة فى تاريخ المغول ، وأكون بذلك قد فتحت المجال أمام دراسات أخرى نقدية بناءة تساعدنا فى تكوين قاعدة ودراسات أفضل من هذه التى أتينا بها .



تم بحمد الله وتوفيقه



مصادر ومراجع الدراسة

أولاً: المصادر العربية

- القرآن الكريم .
- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم ابن عبد الواحد الشيبانى:

الكامل فى التاريخ ، نشر المطبعة الدمشقية بالقاهرة ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ ، ج٩.

- ابن أبى الفضائل (ت بعد ٧٢٥هـ بعد ١٣٢٤م) مفضل بن أبى الفضائل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد المعروف بتاريخ ابن أبى الفضائل ، نشر بلوشيه Blochet ، باريس ١٩١١ - ١٩٣٠ فى مجموعة الـ :

Patrologia orientalis , To. XII, XIV, XX.

- ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م) أبو بكر عبد الله :

كنز الدرر وجامع الغرر : الجزء التاسع بإسم الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م .

- ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى :

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب ، ط. دار

الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

-ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) شهاب الدين أحمد :

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، طبعة حيدر آباد الدكن عام ١٣٤٩هـ ، الجزء الأول .

-ابن شاكر الكتبى : (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) فخر الدين محمد بن أحمد :

فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق دكتور إحسان عباس ، ط . بيروت ، المجلد الأول .

-ابن عربشاة (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠م) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى :

عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، الطبعة الأولى - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

-ابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م) جريجورى أبو الفرج الملطى بن آهرون:

تاريخ مختصر الدول ، ط. أنطون صالحانى اليسوعى، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م . طبعة أخرى فى بيروت عام ١٩٥٨ م .

-ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر ابن عمر بن أبى الفوارس:

تتمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردى ، جزءان ، ط. القاهرة ١٢٨٥هـ/ ١٨٨٦م .

-بنود من قوانين انباسا وردت فى المصادر الاسلامية (الخطط للمقريزى ، صبح الأعشى للقلقشندى) وفى كتب الرحالة الأوربيين أمثال وليم روبروك ويوحنا الكريبنى وبعض المراجع الحديثة .

-السيوطى (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد :

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة . ط . مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ١٣٥١ هـ .

-القلقشندى (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م) أبو العباس أحمد :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزء (نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) مطبعة كوستاتسوماس بالقاهرة . (ج٤ ، ج٥) .

-المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) تقى الدين أبو العباس أحمد:

- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، نسخة مصورة عن طبعة بولاق عام ١٢٧٠هـ ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ، جزءان . وأعيد طبعه ضمن سلسلة الذخائر (سلسلة رقمى ٥٣- ٥٤) فى أربعة مجلدات عن نسخة بولاق.

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ فى ثلاثة أقسام ، ج٢ فى ثلاثة أقسام ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨م.

ثانيًا: المصادر الفارسية المعربة

- البدليسى (ت بعده ١٠٠٥ / ١٥٩٦م) شرف خان :

شرفنامة ، نقله من الفارسية إلى العربية محمد على عونى ، راجعه وقدم له د. يحيى الخشاب ، ط. دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٢ ، جزءان .

- الجوينى (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٣م) علاء الدين عطا ملك:

تاريخ جهانكشاى أو تاريخ فاتح العالم ، نقله عن الفارسية إلى العربية الدكتور محمد التونجى ، الطبعة الأولى (دار الملاح) دمشق ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ ، مجلدان .

- رشيد الدين (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨م) فضل الله المهذانى الوزير بن عماد الدولة :

جامع التواريخ ، نسخة من مجلد واحد نقله من الفارسية إلى العربية د. فؤاد الصياد ، تقديم د. يحيى الخشاب ، ط. بيروت (بدون تاريخ) .

- نسخة تمثل المجلد الثانى (الإيلخانيون) ، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت ، د. محمد هنداوى ، د.فؤاد عبد المعطى الصياد ، طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام ١٩٦٠ ، الجزء الأول ، الثانى .

ثالثا : المصادر الفارسية بلغتها الأصلية

- الجوزجانى أبو عمر منهاج الدين :

طبقات ناصرى ، نشر وليم ناسوليس ، مولوى خادم حسين ، ومولوى عبد الحى ، كلكته ١٨٦٤م.

- وصاف الحضرة أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى :

تاريخ وصاف ، بمباى ١٢٦٩هـ .

- خواندمير (٩٤٢ هـ / ١٥٣٨م) غياث الدين محمد بن همام الدين :

حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ، تهران ١٣٣٣ هـ ش ، الجزء الثالث .

رابعاً : مصادر أوروبية معربة وغير معربة

- ماركوبولو :

رحلات ماركو بولو ، ترجمها إلى الانجليزية وليم مارسدن ، ثم ترجمها للعربية عبد العزيز جاويد ، ط. الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة ١٩٧٧ م.

- **Carpini, John of plano,**

- History of Mongols , ed. by Dawson, C. entitled "The Mongol Mission", London and New York 1955.

- **De Bridia , C.E.,**

- The vinland Map and the Tartar relation, ed. and translated by R.A. Skelton , T.E. Marston and G.D.

Painter, for the yale university press 1965.

- **Rubruck, (Friar william),**

- The journey of William Rubruck to the east part of the world (1253 - 1255) with two accounts of the earlier journey of John of plano de carpine, W.W. Rockhill, London 1967.

: The Journey of William Rubruck , with the title "The Mongol Mission" , ed. by C. Dawson, London and New York .

خامساً : مراجع عربية وأوروبية معربة

- **د. السيد الباز العرينى:**

المغول ، ط . دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨١م.

- **إدوارد براون :**

تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ، ترجمه إلى العربية د. ابراهيم أمين الشواربى ، ط. القاهرة ١٩٥٤ م.

- **برتولد شبولر :**

العالم الاسلامى فى العصر المغولى ، نقله من الألمانية إلى العربية خالد أسعد عيسى ، راجعه وقدم له د.سهيل زكار ، ط. دار حسان بدمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- **حافظ أحمد حمدى :**

الدولة الخوارزمية والمغول ، ط. القاهرة ١٩٤٩م .

- د. حسين مؤنس :

ابن بطوطة ورحلاته ، ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

- عباس العزاوى :

تاريخ العراق بين احتلالين ، ط. بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥ م، جزءان .

- فاسيلى فلاديمير وفتش بارتولد :

تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، نقله من الروسية إلى العربية صلاح الدين هاشم ، ط. الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، نقله عن التركية إلى العربية د. أحمد السعيد سليمان ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨م.

- د. عبد السلام عبد العزيز فهمى :

تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، القاهرة ١٩٨١م.

- د. سعد الغامدى :

جوانب من حياة المغول المعيشية ، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، مجلد رقم ٣٧ عام ١٩٨٩ (ص١٣١ -١٧١م) .

-: الياسا : دراسة نقدية تحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها ، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، مجلد رقم ٣٧ عام ١٩٨٩م ، (ص ٧٧ - ١٢٨) .

- : سقوط الدولة العباسية ، ط . بيروت ١٤٠١هـ .

- : معركة قطوان : أسبابها ونتائجها ، مجلة العصور ،

المجلد الثانى ، الجزء الأول (جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ) ص ٧٥- ٩٤ .

- : المغول بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

- د. سعد زغلول عبد الحميد :

الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم، فصله من مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر (ديسمبر ١٩٥٦) (٥٩- ٨٤) .

- د. سونج كونج :

حملات جنكيز خان على الدولة الخوارزمية ، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر .

- د. صلاح الدين محمد نوار :

الطوائف المغولية فى مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية فى عصر دولة المماليك البحرية ، ط. منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٩٦ .

- د. فؤاد عبد المعطى الصياد :

المغول فى التاريخ ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ط. أخرى عام ١٩٧٥م .

- : الشرق الاسلامى فى عهد الإيلخانيين ، ط. الدوحة ، عام ١٩٨٥م .

- : السلطان محمود غازان خان واعتناقه الاسلام ، الطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

- **د. محمد عبد العال أحمد :**

أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية : أسبابها وموقف حكام بعض الأقطار الاسلامية منها ، ط ١٩٨٧م .

- **رالف لنتون :**

شجرة الحضارة ، ترجمة د. أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٨م ، ج٢ .

- **هايد :**

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا محمد رضا ، مراجعة د. عز الدين فودة ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩١م . ج٢ .

سادساً : مراجع باللغة الفارسية

- **د. شيرين بيانى:**

زن در ايران عصر مغول ، تهران ١٣٥٢ هـ . ش.

- **عبد الله رازى همدانى :**

تاريخ إيران ، تهران ١٣١٧هـ . ش

- **عباس إقبال :**

تاريخ مفصل إيران إز استيلاء مغول تا اعلان مشروطيت ، جلد أول ، تهران ١٣٤٧ هـ .ش.



سابعا : المراجع الأوروبية

- **De Rachewilts, I**
  - Papal envoys to the Great Khans , London 1971 .
- **D'ohssin, M,**
  - Histoire des Mongols depuis Tchinguez Khan jusqu'a Timur Bec, Amesterdam 1934- 1835, 2 Vols.
- **Grousset, R,**
  - L'empire des Steppes , Paris 1948.
- **Howorth,**
  - History of the Mongols, London 1876 - 1888, 5 Vols .
- **Newton, S.P.,**
  - The middle ages , London 1930.



محتويات البحث

الموضوع	الصفحة


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان